

الدكتور عبد العزيز فيلالي

جرائم الجيش الفرنسي
في مقاطعتي الجزائر وقسنطينة
1830 ـ 1850

مؤسسة الإمام الشيخ
عبد الحميد بن باديس

دار الهدى
عين مليلة. الجزائر

الدكتور عبد العزيز فيلالي

جرائم الجيش الفرنسي

في مقاطعتي الجزائر وقسنطينة

1830 ـ 1850

جرائم الجيش الفرنسي في الجزائر

مقدمـــة :

منذ استرجاع السيادة الوطنية في 5 جويلية سنة 1962،و الأمة الجزائرية تطالب الدولة الفرنسية الإقرار بما اقترفه جيشها و حكومته من تقتيل و تشريد و إبادة،و الاعتراف بجرائمه المتعددة و المتنوعة في الحقبة الممتدة ما بين 5 جويلية 1830 و 5 جويلية 1962.

و قد استمرت المحاولات من قبل شخصيات وطنية،و هيئات مستقلة و مؤسسات رسمية كالبرلمان،الذي وضع مشروعا لقانون يتضمن" تجريم الاستعمار" الفرنسي بحكم احتلاله للجزائر طيلة قرن و ثلث قرن من الزمن.

إلا أن هذه المبادرة،لم تجد التعضيد الكافي و العناية الخاصة و الآذان الصاغية،بل ظل المشروع حبر على ورق، يراوح مكانه،بين أروقة البرلمان و أروقة الحكومة عدة سنوات،لم يتم مناقشته، و لم تتم المصادقة عليه،و لعل ذلك يعود لأسباب سياسية و دبلوماسية.

أما الحكومة الفرنسية ، فلم تتردد في حسم موقفها ، و فاجأت الجميع برد فعل سريع ، فأصدرت قانونا مضادا " يمجد الاستعمار" يوم 23 فيفري 2005 يعظم أفعال الاستعمار و ينوه بأثاره المدنية على الشعوب المستعمرة فيما وراء البحار. تريد من خلاله ، تغطية جرائم جيشها و حكومته ، و تبعد عنها

الأفعال التي بادر بها قادتها و ضباطها في القرنين الماضيين ، و بالتالي تتهرب من الاعتذار للشعب الجزائري و تتنصل منه.

و مهما يكن من آمر فان الجدير بالذكر هو : مهما قدمت الحكومة الفرنسية من قوانين،و مهما تباهت بماضيها الاستعماري و بحضارتها،فان ذلك لا يسقط التهمة الموجهة للاستعمار،لأنها واضحة و ثابتة و مؤكدة في تصريحات و تقارير ضباطها و وزرائها و ساستها و مثقفيها،مدونة و منشورة في المؤلفات الفرنسية و محفوظة في أرشيفات،كل من الحكومة و جيشها،و البرلمان الفرنسي،و كذا عند الجزائريين الذين عاصروا الحدث و عاشوا أهواله.

إن هذه الوثائق جميعها ، شاهد عيان و قرائن دامغة،تفصح عن الجرائم المتنوعة و المتعددة المرتكبة في حق الأمة الجزائرية الآمنة في وطنها،تعرضت للعدوان و الظلم و الطغيان و التصفية الجسدية ، بهدف الاستطان .

إن خوض هذه الحرب الشاملة ، لعشرات السنوات،بعيدة الأثر في نفوس أهل الجزائر،مليئة بالدروس و العبر و العظات، يتطلب من الباحثين و الدارسين، إدراكها و التأمل فيها من جديد،و إعادة النظر في دراسة إحداثها،و البحث المعمق في مسيرتها في كل عصر،و لاسيما بعد اكتشاف وثائق و نصوص جديدة،حتى نستفيد من أخطاء الماضي و نتجنبها،و نواجه أخطار الحاضر و تحدياته و نتفاداه،و نرسم خريطة طريق للمستقبل،و بذلك نحافظ على حقوقنا و حريتنا و كياننا و استقلالنا،في هذا العالم المضطرب،و نضمن لأبنائنا الحياة الحرة الكريمة الآمنة.(1)

إن البحث في تاريخ الجزائر الحديث و المعاصر و الكتابة فيه و الغوص في جوانبه المتعددة ، من الصعوبة بمكان،لافتقاره الى المصادر الوطنية الأساسية و لاسيما فترة الاستعمار الفرنسي،التي دوّنها رعيل من المؤرخين الذين عاصروا فترة الاحتلال،و تعاونوا معه ، و تفاعلوا مع التوسع و الاستيطان، و كانوا في خدمته،بحيث جعلوا من فرنسا الوريثة الشرعية و الحقيقية للحضارة اللاتينية و الديانة المسيحية في الجزائر فضخموها و أبرزوا معالمها،لتبرير احتلالهم و بقائهم في هذه الأرض،فتعرضوا لتاريخنا القديم و الوسيط و حتى الحديث منه بالتشويه و التحريف،مجانبين الحقيقة لاهداف استعمارية و استغلالية و استعلائية و خاصة منهم : ڤوتيي **Gautier** و كورتوا **Courtois** و كامب **Cambs** و جوليان **Julien** و غسال **gsell** و غيرهم فضلا عما كتبه فرنسيون هواة من المدنيين و العسكريين ، طغت عليهم النزعة الاستعمارية ، لتبرير شرعيته و إقرار نظامه،و أن شعورهم بالتفوق في ميدان الحرب ، جعلتهم يتمادون في ذكر الوحشية التي قابلوا بها سكان الجزائر،و يتبجحون بمظاهر العنف و الإبادة، و التذمير و الأرض المحروقة،و قتل الآلاف من الجزائريين في المغارات و الكهوف التي لجأوا إليها و هم عزل بدون سلاح . و لم يتوان قادة الاحتلال و ساسته ، في التصريح بضرورة إبادة الشعب الجزائري،لأنه غير قابل للتحضر كهنود أمريكا و شعب الابوريجين في استراليا ، و هي نظرة عنصرية استعلائية.

انها جرائم ضد الإنسانية منصوص عليها في بروتوكول الأمم المتحدة و مواثيقها ، اقترفها الجيش الفرنسي في الجزائر دون خجل أو وجل ، تضمنتها الفقرتين " أ " و "**ب**" من قانون الأمم المتحدة الذي صادقت عليه الجمعية العامة الأممية و المجموعة الدولية بالتدرج و على فترات زمنية متعاقبة ، و هي

تصرفات اقترفت بحقد و عنصرية و همجية قل نظيرها في الحروب التي عرفتها البشرية ، وصفها أعيان قسنطينة و نخبتها بالعمل الشنيع، لم يسبق أن سجل في تاريخ الطغاة ،و أن القتل و التخريب و التذمير الذي كان يقترف يوميا ، اشد قسوة و شناعة من كل المظالم التي عرفت حتى الآن (أي القرن 19)،و ليس هناك ظلم يشبه طغيان الجيش الفرنسي و ضباطه،فقد تجاوز كل الحدود، و تعدى خيال الطغاة منذ أن خلق الله آدم الى يومنا هذا حسب تعبير أعيان قسنطينة.و لم يخفوا ذلك في تقاريرهم و وثائقهم و رسائلهم و خطبهم و تصريحاتهم و في مؤلفاتهم.

و قد ظهر جيل من المؤرخين الفرنسيين بعد الفترة الاستعمارية، أقل عنصرية بل منهم من كان موضوعيا في بعض الأحيان، أظهر شجاعة في ذكر بشاعة الاستعمار و جرمه و أفعاله اللاّ انسانية في أبحاثهم و مصنفاتهم و خاصة منهم"آجرون" و "فرنسوا مسبيرو" و " سطورا " و "اوليفيي" و غيرهم من المؤرخين الفرنسيين الذين كانوا أكثر موضوعية .

لقد جندت فرنسا كل وسائلها و إمكانياتها لاحتلال الجزائر ، و الاحتفاظ بها ، و عينت على رأس جيوشها قادة لهم خبرة كبيرة و باع طويل في ميدان الحرب و القتال ، اكتسبوها في حروبهم بالقارة الأوروبية ، و الأسيوية ، ارتبط تاريخهم ، بارتكاب جرائم حرب و ابادة جماعية راح ضحيتها الملايين من الأمة الجزائرية ، لان الحرب في الجزائر جعلوها حربا شاملة استثنائية لا تشبه الحرب في أوروبا.

و لا يزال الفرنسيون الى يومنا هذا ، يضفون على فترة الاستعمار المزيد من المحاسن و التنويه و الاحتفالية ، و جعلوا منها فترة مجد و ازدهار للدولة الفرنسية.

برز في هذه الحرب قادة جدد من الرعيل الثاني على مسرح التاريخ نذكر منهم على سبيل المثال :" بيجو" Bugeaut و كانروبير Canrobert و بازاين Bazain و سانت آرنو Saint Arnaut و راندون Randon و شانغارنيي Chargarnier و آخرون ، ممن ارتبط اسمهم بالمجازر و الابادة و التذمير المنظم و غير المنظم و الأرض المحروقة ، و الاعتداء على المقدسات الدينية و المراكز الثقافية و المؤسسات التربوية و الأملاك العامة ، و الخاصة و الأوقاف و انتهاك رموز الجزائر ، حرضوا عليها الجنود و المدنيين ، تدفعهم في ذلك رغبتهم في المساس بالهوية الوطنية و الدينية و أهل البلد و ثقافتهم .

و قد اعترف البعض منهم بهذه المجازر و لم يخفوها بل كانوا يتباهون بها، فكتبوا عنها ، فالجنرال "سانت آرنو" مثلا كتب مفتخرا في رسائله العديدة عن المعارك و المجازر و تذمير القرى و المداشر و الحقول ، التي اقترفها جنوده بدون حياء أو وخز للضمير.

و عن هذا الأخير يمكن ان نقول بانه شارك في ثلاثة حملات عسكرية كبرى ، فالأولى استهدفت ابادة الأمة الجزائرية عن بكرة أبيها ، اثناء حرب الاحتلال ، و ساهم في قتل شعبه عندما تصدى نابوليون الثالث لقمع الجمهورية الثالثة و اضطهاد عناصرها ، لانه كان مكلفا بما يسمى "**بالمهام الدنيئة**" ، ثم اقترف جرائم أخرى في "حرب القرم " بمنطقة البلقان ، لغرض

هيمنة غرب أوروبا على العالم ، فقد كانوا بالأمس يهدفون الى السيطرة على المضائق البحرية و الممرات ، ذات الأهمية الاستراتيجية.

أما اليوم فقد تغيرت الظروف و الإمكانيات و تطورت الوسائل فغيروا أهدافهم الى السيطرة على منابع النفط في العالم.

و هناك الكثير من الأمثلة عن الذين تورطوا في اقتراف جرائم ضد الإنسانية باسم عظمة بلادهم و تحقيقا لثرواتهم الشخصية امثال" سانت آرنو " و " الدوق روفيقو" و " بيجو " و غيرهم كثيرون ، فقد نادى روفيقو القائد العام للجيش الفرنسي على جنوده :" **إليّ بالرؤوس ...هاتوا اليّ الرؤوس ... سدوا قنوات المياه المعطوبة بواسطة رأس بدوي يقع في أيديهم**" و ترك بيجو لجنوده وصية " **اخنقوهم بالدخان مثل الثعالب**".

و عن سقوط قسنطينة ،التي دارت فيها معارك ضارية ، ليس لها مثيل ، لان السكان ابلوا البلاء الحسن في مقاومة العدو و التصدي له ، حتى استلزم القتال كل حي و زنقة و زقاق و ساحة و درب و بيت و دار ، فكان " سانت آرنو" مندهش لهذه المقاومة الجريئة ، و متأثر في نفس الوقت لهول المجازر و القتل.

و عندما استسلمت المدينة ، جال فيها الجنود و صالوا ثلاثة أيام كاملة بحثا عن كل شيء ثمين ، و عن كل ما يمكن تدميره أو نهبه ، فقد دفع المدنيون القسنطينيون ثمنا غاليا ، و لاسيما القسنطينيات اللائي لم يتحدث احد عنهن إلا القليل ، تعرضن للاغتصاب في تلك الظروف و ويلاته.

أما عن مجموع الغنائم التي اغتنمها العدو من المدن و المداشر و القرى التي احتلها فحدث و لا حرج ، لدرجة أنهم كانوا يضغطون على أمين خزانة الداي أو الباي (الجزناجي) حتى لا يصرح بما في الخزينة كاملا ، و بذلك يتسنى لهم اخذ ما شاءوا لميزانيتهم الخاصة و جيوب الوزراء و كبار رجال الدولة ، بل حتى الملك ذاته اخذ حصة الأسد من هذه الغنائم ، التي استولوا عليها من دار السلطان (الجزائر) و من بايلك التيطري و وهران و قسنطينة و تلمسان ، و عن هذه الأخيرة يمكن أن نجعلها كمثال لما أخذه العدو منها، فقد تمكنت من الحصول على رسالة خطية ، موجهة للجنرال بيليسيي Pélissier من أ حد ضباطه بالمشور بتلمسان مؤرخة في 1850/09/18م يعلمه فيها ، بأنهم تحصلوا على وثيقة يعود تاريخها الى سنة 1772م من اسبانيا تتضمن معلومات عن وجود كنز مخبأ في قصر المشور يرجع الى عهد ملوك بني زيان ، فقاموا بالبحث و التنقيب عنه ، و استطاعوا العثور عليه بين جدارين في غرف من غرف المشور ، يحتوي على أموال طائلة نحو مائتي و خمسين قنطار من الذهب و الفضة ، على هيئة نقود و مجوهرات ، و صناديق أخرى بها أشياء ثمينة (انظر الضميمة رقم3) ، فضلا عن المبالغ الأخرى من المدن الأخرى أخذها رجال الاحتلال ، من أبناء الوطن ، فعوضوا ما أنفقوه أثناء الحرب و ذهب الجزء الآخر الى جيوب الجنود و الضباط و القادة السياسيون.

و قد قسمت البحث الى قسمين رئيسيين :

القسم الأول يشتمل على جرائم الجيش الفرنسي في الجزائر من حرب صليبية و حرب عنصرية و إبادة جماعية ، و تذمير القرى و المداشر و حرب

المحرقة و تعذيب الأسرى و قتل الجرحى ، و هي أعمال تعد من الجرائم ضد البشرية الموثقة في قوانين الأمم المتحدة ، و بروتوكولاتها.

أما القسم الثاني فيتضمن الاحتلال الفرنسي لمدينة قسنطينة ، و ما انجر عنه من تقتيل و تدمير للمنشآت و تشريد للأهالي و اغتصاب للنساء و الممتلكات، و تضمن البحث المقاومة العنيدة التي أبداها سكان هذه المدينة العتيقة حتى صارت تدعى بحرب الشوارع،و يشمل البحث على ضمائم و خرائط و صور لكل قسم تؤكد ما جاء في المتن من أحداث عنيفة و حرب مدمرة .

و قد حاولت أن أحشد الشواهد التاريخية في هذا البحث، و تحليلها و استقرائها و استنباط معانيها من النصوص و الوثائق الفرنسية و الجزائرية المعاصرة للحدث ،لأضع القارئ في الصورة المعاصرة لها.

قسنطينة في 2011/12/25

أسباب الاحتلال و دوافعه:

كانت فرنسا تتعامل مع الجزائر كدولة ذات سيادة و أمة كاملة الاستقلال،بدليل أنها في سنة 1793 و في خضم حروبها مع أوروبا،و في سنوات الثورة الفرنسية و في عهد القنصلية كانت تعتقد أن الجزائر هي البلد الوحيد القادر على مساعدتها و تزويدها بما تحتاج اليه من مواد غذائية و صناعية مثل القمح و القنّب لصناعة الحبال و من الخيول العربية و البربرية المتميزة، بل تعدى الأمر بالدولة الفرنسية الى حد التماس مساعدة مالية معفاة من الفوائد سنة 1797 أي أثناء الثورة(2) .

حاولت الدول الاوروبية تدويل القضية الجزائرية في مؤتمرين فيينا سنة 1814 و مؤتمر ايكس لاشابال سنة 1818 للحد من قوة الاسطول الجزائري في البحر الابيض المتوسط و تحديد مجاله ، و الضغط على الايالة و تهديدها بالاحتلال.

و لهذا اسرعت فرنسا لتنظم الى الحلف الاوروبي المكون من أربع دول و صارت هي الخامسة ، تفكر في الانفراد باحتلال الجزائر ، و لاسيما بعد خروجها من حروب نابليون ضعيفة سياسيا و اقتصاديا لتعيد هيبتها في الداخل و الخارج .

إن مسألة ديون الجزائر على فرنسا تعود الى القرن 18م أي منذ عهد الداي حسان باشا (1791-1796) ، ثم الداي مصطفى باشا (1796-1805) الذي خلف حسان باشا في وراثة الديون ، و كان اليهود من بيت باكري الذي

هاجر من ليفورن الى الجزائر سنة 1770 وسطاء في العمليات التجارية بين الجزائر و فرنسا ، و قضى الداي مصطفى باشا سنة 1805 دون أن يسوي ديونه مع الدولة الفرنسية و الوسطاء التجاريين.

و قد تراكمت هذه الديون و زادت مع مرور الزمن منذ حملة نابليون على مصر و ايطاليا ، لأن الجزائر في ذلك الوقت كانت الممول الرئيسي لفرنسا ، قادرة على توفير الغذاء لجيوشها .(2م)

و في سنة 1815 عينت فرنسا قنصلا جديدا لها في الجزائر هو"بيير ديفال" Pierre duvale الذي عاصر الاحداث ، حتى الاحتلال الفرنسي للجزائر ، و لعب دورا كبيرا في وقوعه ، و كان يحمل معه أوامر ، لتسوية الخلافات مع الجزائر و من بينها مسألة الديون ، و استطاع إنزالها و تخفيضها بالتفاوض من (24) مليون فرنك الى (7) ملايين فرنك فقط ، و على الرغم من ذلك لم تسو هذه الديون ، بل سويت ديون الوسطاء اليهود على حساب ديون الجزائر.

و الظاهر ان ديون الأيالة الجزائرية ، قد حوّل معظمها لفائدة شركة البيت اليهودي "باكرى" ، المختصة في انواع عديدة من التجارة ، بين الجزائر و "ليفورن" Livourne ، طيلة خمسة عشر سنة ، و كان القنصل الفرنسي "ديفال" ، وضيعا مرتشيا عديم الضمير متورطا في عدة قضايا مشبوهة كما وصفه المؤرخ "مسبيرو"(3).

و في أوائل أفريل سنة 1827 صدرت الأوامر لقاعدة طولون البحرية بارسال أربعة سفن حربية لحصار ميناء الجزائر ، بعدها تمت المقابلة التاريخية بين

الداي حسين (1818-1830) و القنصل "ديفال" يوم 30 أفريل1827 و هي الحادثة المعروفة " بالمروحة " ، و لهذا تكون فرنسا قد قررت استعمال القوة ضد الأيالة الجزائرية،قبل حادثة المروحة ، التي تدرعت بها فرنسا لاحتلال الجزائر(4).

و كانت الفكرة السائدة حسب زعم القادة الفرنسيين في البداية هي الضغط على الداي للتنازل على مطالبه ، و إعادة ما سلب من سفينة البابا ، و إنهاء القرصنة و الاتاوات و الاسترقاق و الاعتراف لفرنسا بحق الدولة الأولى بالرعاية في الجزائر ، و حق استغلال صيد الأصداف ، و كان "ديفال" متحمسا لفكرة الاحتلال ، مؤكدا لهم سهولة تنفيذ النزول الى البر ، و أيده في ذلك قائد الحصار "كولوت" ، و أن الاحتلال في نظرهم ، سيكون فرصة للتخلص من معاهدة "فيينا" و في نفس الوقت العمل على إلهاء الثائرين ضد العرش في الداخل، و يؤكد ذلك ما جاء في تقرير أحد القادة للعرش :"**ان شعبا معروفا بالشغب مثل الشعب الفرنسي ، لابد له من حين لآخر أن يرى حوادث خطيرة تخرج به عن الحياة المألوفة ، و احتلال الجزائر سيغذي هذا الخيال و سيمكن الملك من حل البرلمان الذي قويت فيه المعارضة**"(5).

أما مسألة النفقات ، التي تثير جدلا و معارضة في البرلمان ، فيتوقع وزير الحربية ، أن خزينة الأيالة الجزائرية كفيلة بذلك لأنها تضم نحو 180 مليون فرنك ، ستغطي مصاريف الحملة ، و ستكون الجزائر مفيدة لأنها تحتوي على ثروة طبيعية هائلة ، حيث يتمكن الملك من توزيع الأراضي على أعوانه، و يفوض البلاد على منتوجات المستعمرات القديمة(6) .

و لعل الاحتلال الفرنسي للجزائر ، كان مشروعا قديما ، تبناه الامبراطور "نابليون" ، و وضعه ضمن مشاريعه العديدة ، و يظهر ذلك من خلال إرساله الضابط المهندس"بوتان"Boutin الى الجزائر ، ليستطلع أحوال الأيالة كما شجعه ضعف الخلافة العثمانية من جهة ، و تنامي خطر التوسع الانجليزي في البحر الأبيض المتوسط من جهة ثانية و لهذا يمكن القول ، بأن التفكير الجدي للاحتلال ظهر مع سنة 1825م ، و كلف نابليون الحاكم المصري محمد علي باشا بتنفيذ المهمة ، و تأسيس مملكة عربية عصرية قوية تحت المظلة الفرنسية تمتد من مصر الى شواطئ طرابلس و تونس و الجزائر ، غير أن هذا المشروع لم يكتب له النجاح ، لأن الباشا محمد علي لم يكن يرغب في مشاركة الجيوش الفرنسية معه لقتال المسلمين ، فكان يطالب فقط بإمداده بالمال و السفن و السلاح ، و لأن الدولة العثمانية كانت تعارض هذا المشروع أيضا.(7)

و لقد هللت معظم الفرق التجارية الفرنسية لمشروع الاحتلال و أيدته لما في الجزائر من زراعة ملائمة كزراعة القطن و قصب السكر و البن و أشجار النيلة (L'indigo) و الكاكاو و غيرها من المزروعات التي يمكن أن تحتضنها أرض "مطامير روما".(8)

تدخل وزير الحربية الفرنسي السيد " دي كليمونت – تونار De clément-tonnére أمام مجلس الوزراء الفرنسي يوم 14 أكتوبر 1827 و اقترح على الملك شارل العاشر اغتنام فرصة " **الحرج الذي تعيشه انجلترا اليوم لغزو دولة الجزائر ، و تمكين الدولة الفرنسية من قوة في افريقيا**". و قد عبر احد الاقتصاديين و هو سيموندي Simondi في مقال له عن إرادة الدولة

الفرنسية لاحتلال الجزائر جاء فيه : "**إن مملكة الجزائر هذه لن تكون مجرد غزو، سوف تكون مستعمرة ، سوف تكون بلدا جديدا**، سيوجه إليه الفائض من السكان و المنتوجات الفرنسية".[(8م)]

و من بين عوامل الاحتلال أيضا تقوية عرش الملك "شارل العاشر" (1824–1830) ، و قد عبر عن ذلك المارشال "بيرتيي" (Bertier) بقوله: " **سوف نقوم ببعض المناوشات ضد الداي في الأيالة ، و لكن الحرب الحقيقية و الجادة سوف تندلع بعد عودتنا**."[(9)]

غير أن الاستعدادات للحملة و التحضير لها بهذه الكمية و الكيفية لا تدل على المناوشة العسكرية فقط ، بل تبين نية فرنسا للاحتلال الاستيطاني فقد كان عدد قواتها التي نزلت في خليج سيدي فرج يوم 12 جوان1830 غرب الجزائر العاصمة ،نحو 100 ألف عسكري ما بين البحارة و الوحدات القتالية البرية ، ناهيك عن عدد المدنيين الذين كانت تنقلهم نحو 535 سفينة نقل، منهم 20 ألف مقاتل من رجال البحرية ، و كان الأسطول يتكون من 104 سفينة حربية منها سبع سفن بخارية و هو سلاح رهيب في ذلك الوقت، بالإضافة الى عدد كبير من السفن التي أستؤجرت للمساعدة و الاحتياط ، و كان القائد العام للحملة هو الجنرال دي بورمون و قائد البحرية الاميرال دي بيرييه[(10)].

استسلم الداي حسين و فرقة الانكشارية و جيوش القبائل و الأتراك الذين جاءوا من الشرق و الغرب و الوسط ، بعد شهر من القتال ، فاقتحم الجيش الفرنسي مدينة الجزائر في "هرج و مرج كبيرين "حسب تعبير "مسبيرو " و لم

يستطع أحد أن يتحكم في الوضع و يتصدى لأعمال النهب و السلب و العنف و الجرائم التي كانت تقترف في حق الأهالي في المدينة عامة و القصبة على وجه الخصوص ، شارك في عملية النهب ضباط سامون في الأركان و بتشجيع منهم، فاستولوا على خزينة الداي التي كان بها مبلغ يزيد عن 55 مليون فرنك، و هذا المبلغ في حد ذاته يغطي تكاليف الحملة ، الاّ أن جزءا كبيرا منها ذهب الى جيوب كبار رجال الدولة الفرنسية في باريس و على رأسهم "لويس فيليب" باعتراف وزير المالية الفرنسي.[11]

فقد جعل "دي بورمون " الجزائر في حالة يرثى لها ، حولها في بعض أسابيع الى وضعية كارثية ، بالرغم من وجود معاهدة و أوامر من السلطات العليا تنص على معاملة الأتراك و الأهالي بالرفق ، بل لم يتوان في إجلائهم جميعا ، فقد وضع نحو 15 ألف رجل من الأتراك الانكشاريين في سفن و حولهم الى الشرق فمات العديد منهم في غياب البحر ، و فرّ الكثير من سكان المدينة و لم يبق فيها إلاّ فئة قليلة ممن لم يتمكنوا من الفرار ، حاولوا العيش في الوضع الراهن و التكيف معه ، و قد استغل اليهود الفرصة للاستثمار في ظل الظروف و الأوضاع الجديدة ، فنصبوا أنفسهم وسطاء للسلطة الجديدة وكان"باكري Bacri" يتولى الصدارة ، فأصبح مستشارا خاصا لدى دي بورمون ، كما نصبه هذا الأخير رئيسا للجالية اليهودية في الجزائر[12].

و كانت فيالق كلوزيل مؤلفة من فلول المتمردين على النظام الملكي فقد سارعت الحكومة الى التخلص منهم ، بإرسالهم الى الجزائر ، و كانوا يسمونهم "بالبدو الفرنسيين".[13]

و قد سجل القائد " لامورسيير" في تقاريره عن الوحشية التي ارتكبها الجيش الفرنسي " قائلا : " **يبد و أن التاريخ لم يسجل أبدا حملة احتلال جرت وقائعها مثل هذه الفوضى ، حتى في العصور الأكثر وحشية** " [14]. و هو الوضع الذي جعل أحد ضباط الإمبراطورية و هو "كاستيلان" Castellane يتقزز من هذه المناظر ، و من المشاهد الفظيعة يوميا فدفعته الى التنازل عن منصبه كقائد في الجيش الإفريقي.[15]

و كتب القائد العام "برتوزان" الذي خلف "كلوزيل" قائلا : " **عندما أتيت الى هذه الشواطئ شبه المتحضرة ، كنت أعتقد أن واجبي هو جعل لفظة "فرنسي" اسما مبجلا هنا ، ، و ذلك بفضل حسن سلوكي الشخصي و بأعمالي ، التي ستجعل الناس يكنون مشاعر الاحترام و المحبة لحكومة الملك ... أنني مقتنع بأنه لم يسبق أبدا لسكان هذه الربوع أن تعرضوا على يد الحكم التركي ، الى مثل هذا التنكيد و الجور...كم مرة وجدت نفسي فيها خجلا من سمعة "الفرنسيين " المهانة أمام أنظار قناصل العالم المتحضر ، و أمام هؤلاء الأفارقة ، الذين نزدريهم ، و لكنهم يتمتعون بذهن ثاقب...سبق لي أن شرحت لكم أننا هنا لغاية واحدة هي نهب الثروات العمومية و الخاصة و هو منهج ساذج بكل تأكيد.**"[16]

و بسبب موقف "برتوزان" و اعتراضه على أفعال القتل و النهب ، تعرض للمضايقات المزعجة ، و لم يطل به الزمان كقائد عام في الجزائر فأنهيت مهامه في آخر سنة 1831م بسبب مواقفه الإنسانية فعوضه القائد العام السابق للشرطة الامبراطورية و هو " الدوق روفيغو" السفاح.[17]

و تشير شهادة الكولونيل "بيليسيي دورينو" Pelissier de reynaud "أن كل شيء حي كان مآله الموت " و يعني ذلك الإبادة الجماعية.

فكان رجال "روفيغو" يرفعون رؤوسا للاهالي فوق أسنة بنادقهم استعملوها في ولائم فظيعة ، و كان هذا القائد يأمر جنوده بأن يأتوا برؤوس القتلى ، و يسدّون بهم قنوات المياه ، لقد هلك أكثر من 12 ألف من أبناء قبيلة "العوفية" بالقرب من البليدة.(18)

يعد الاحتلال الفرنسي للجزائر في القرن 19م ،حلقة من حلقات الحروب الصليبية الدينية ، و حرب إبادة ضد الجنس العربي المسلم ، استعمل فيها جيش الاحتلال مختلف الوسائل و الطرق ، غير المشروعة في الحروب ، كالأرض المحروقة و الإبادة الجماعية للإنسان و الحيوان ، و المحاصيل الزراعية، و الأشجار المثمرة و الزياتين و هذم المنازل و البنايات الدينية و التعليمية و الثقافية و حول الكثير منها لأغراضه الخاصة ، و ذهبت القوات الفرنسية، الى التذمير الكلي للقرى و المداشر و التجمعات السكانية بدون تمييز ، و راحت إلى ابعد حدود المطاردة،و لم يتوان قادة الاحتلال و ساسته ، في التصريح بضرورة إبادة سكان الجزائر ، و قدموا الحجج و البراهين لإقناع المعارضين للاحتلال ، و لهذه الحرب المدمرة لكل شيء ، بأن سكان الجزائر غير قابلين للتحضر ، ضاربين المثل بما صنعه الغرب المسيحي مع هنود امريكا و شعب الأبوريجين في استراليا و كذلك بقبائل بالهوتونتو و البوشيمان.(19)

و هي حرب فرضها الفرنسيون على أهل البلاد ، لاحتلال الوطن و اغتصابه تدفعهم الرغبة في الكسب و التوسع ، تحمل في طياتها العوامل

العسكرية و الاقتصادية و الاجتماعية و العنصرية ، و بعدها الديني الصليبي ضد المسلمين في هذا الوطن. و هي أحداث و أفكار قديمة ، خاضها أجدادهم ضد المسلمين في المشرق و المغرب خلال العصور الوسطى ، بمباركة البابوية و تدعيم رجال الدين ، لأن الجزائر أصبحت في نظرهم ، تحمل بعدا عسكريا متقدما و عمقا استراتيجيا هاما، يجب احتلالها ، و الحفاظ عليها بأي ثمن ، حتى يتمكن الصليب من الهلال و تتغلب الحضارة اللاتينية المسيحية ، على الحضارة العربية الإسلامية [20].

إن العدوان الفرنسي على الجزائر ، عملية وحشية غير إنسانية ، تعد وصمة عار في جبين أهل بلاد الغال ، تنبذها القوانين الدولية و الروح الإنسانية و الكتب السماوية.

كان هدف العدوان الاستلاء على الأرض و خيراتها ، و استرقاق أهلها و تنصيرهم أو تهجيرهم أو إبادتهم ، كما فعل أسلافهم الرومان في العهد القديم، و الدليل على ذلك ، تصريحات بعض النواب في البرلمان الفرنسي [21]،بأن الحرب التي تشنها فرنسا على الجزائر **" عملية صيد عارمة"** و حرب استثنائية ، يستوجب على الفرنسيين اللجوء الى طرق و وسائل فريدة من نوعها ، لا تقارن بالحروب التقليدية التي تقام بين الدول الأوروبية [22] ، لا يستثنى منها استعمال العنف بكل أشكاله للظفر بالجزائر ، و يعتبرون استقرار فرنسا فيها ، ينهي ما تعانيه من مشاكل متعددة و لاسيما الاقتصادية منها ، و يحد من الاضطرابات الاجتماعية الداخلية ، و التخلص منها و تقويضها ، لما تتميز به الجزائر من موقع جيوستراتيجي و سياسي و بعد اقتصادي هام ، و شبهوها بكاليفورنيا

الأمريكية ، يمكن بها القضاء على المشاكل، التي تتخبط فيها فرنسا في ذلك العهد، فأراضيها غنية و أهلها حسب زعمهم متوحشون ، و كسالى لا يعملون فلماذا لا تكون هذه الأرض هجرة لفقراء فرنسا و أوروبا و مغامريها و اعتبروها الأرض الموعودة ، للطبقات الدنيا في المجتمع الفرنسي ، و لاسيما منها التي لا تحوز على عمل أو ارض ، فتعوضهم عما حرموا منه في بلادهم[23].

و كانوا يطمحون إلى بناء حقبة تاريخية جديدة لهم ، بعد سلسلة من الإخفاقات و الانهزامات على الصعيد الأوروبي الخارجي ، و القضاء على الاضطرابات على الصعيد الداخلي ، تنهض بها و من خلالها فرنسا و تتميز بها على غيرها ، و تجعل منها امتدادا طبيعيا و منطقيا للتوسع الروماني القديم ، و يطمحون الى التفوق و العيش الرغد و الأمن و الرفاهية ، و جلب الهيبة لفرنسا و الاحترام للبلاد الأوروبية.

أما التخلي عن المشروع كما يرى احد النواب ، فانه سيفقد فرنسا التميز الذي يأمله و ينشده الفرنسيون.[24]

فقد وضعت فرنسا الجزائر نصب أعينها ، وفي قلب رهاناتها ، التي تمسها مباشرة ، و صارت الجزائر من بين القضايا المصيرية ، التي تهدف الى تحقيقها. و أن الفشل في ذلك سوف يجلب لها الخزي و العار في الخارج، و الانهيار في الداخل حسب خطاب احدهم.[25]

فلهذا اتسم الاحتلال الفرنسي للجزائر ، بمختلف مظاهر العنف و الإبادة و الأفعال اللا انسانية و الجرائم المتنوعة ، التي اقترفها الجيش الفرنسي في الجزائر، و تعد هذه الأفعال في نظر القانونيين و الإنسانيين و رجال الدين ، جرائم منظمة ضد الإنسانية ، و حرب إبادة تضمنتها الفقرتين **' أ '** و **' ب '** من قانون الأمم المتحدة و تشريعاتها ، و هي قوانين صادقت عليها الجمعية العامة الأممية و المجموعة الدولية بالتدرج على فترات زمنية متعاقبة.(26)

و قد اعتبرت الأفعال التي تتعارض مع ما جاء في هذه القوانين و البروتوكولات جرائم حرب و إبادة جماعية ضد الإنسانية ، لأول مرة في مدينة " نورمبرج " الألمانية سنة 1945 ، و حددتها المادة السادسة ، من قانون المحكمة العسكرية الدولية ، و بينتها في الأفعال التالية : القتل المتعمد-الاستئصال-الاسترقاق-التهجير-الرهائن-الابادة-التمييزالعنصري-التعذيب-الاعتداء على الأشخاص و الممتلكات-التجارب الخاصة بعلم الحياة-الإضرار بالسلامة البدنية أو بالصحة –الاضطهاد لأسباب سياسية أو عرقية أو دينية – قتل الأسرى-عدم إسعاف الجرحى أو المرضى-تدمير الممتلكات العامة و الخاصة أو الاستيلاء عليها –استعمال الأسلحة السامة- تدمير القرى و المداشر و المدن و التجمعات السكانية- تدمير المعالم الفنية و الأثرية و التاريخية – و المؤسسات العلمية و الثقافية – نهب الآثار و النصب التذكارية، و أماكن التراث و الثقافة.

و قد صادقت الجمعية العامة على هذه الأفعال على فترات زمنية متعاقبة، و اعتبرتها جرائم دولية منذ السنوات التالية:

صادقت الدولة الفرنسية على اتفاقيات جنيف و المتعلقة بحقوق الأسرى في 1864/08/22، بحيث يتلقى المصابون في الحرب و المرضى مهما كانت جنسياتهم العناية و الحماية[27]. و صادقت على قوانين الحرب و أعرافها سنة 1907 م ، و قانون " نورمبرج " الألمانية عام 1945 و على المعاهدة الدولية للوقاية من القمع و أعمال الإبادة ، و من الأفعال المحرمة دوليا في 1948/12/09 و اعتبرتها جرائم دولية.

و صادقت أيضا الأمم المتحدة على حماية ضحايا الحرب في جنيف سنة 1949م، و اتفاقية لاهاي ، التي تتعلق بالقيم التاريخية و الآثار سنة 1954،و على اتفاقية القضاء على جريمة التمييز العنصري يوم 1973/12/20 و المعاقب عليها دوليا ، و على البروتوكولات الإضافية المؤرخة سنة 1977م.[27]

و كانت الجمعية العامة قد تبنت في 1970/11/11 ، القانون الذي ينص على أن الجرائم ضد الانسانية ، جرائم حرب ، لا تسقط بالتقادم،و قد طبقتها فرنسا سنة 1987 ، عندما تعرفت على ضابط ألماني يدعى" كلوس باربييه" klaus berbier ، المكلف بمهمة التعذيب في الجيش الألماني في مقاطعة ليون أثناء الحرب الكونية الثانية [28]،و التي قام بتعذيب بعض الفرنسيين ، خلال احتلال ألمانيا لفرنسا مدة أربع سنوات ، فكيف يكون الوضع يا ترى ؟ و الموقف من الضباط الفرنسيين، الذين عاثوا في الجزائر فسادا و ارتكبوا الجرائم المتعددة ضد الشعب الجزائري طيلة قرن و ثلث قرن من الزمن[29].

و إذا قارنا الأفعال المحرمة المنصوص عليها دوليا ، بالأفعال و التصرفات التي صدرت من الجيش الفرنسي و ضباطه ، أثناء الاحتلال ، نجدها تفوقها

بكثير ، و تزيد عنها ، و هي تصرفات اقترفها جيش الاحتلال ، بحقد و عنف و همجية و عنصرية ، قل نظيرها في الحروب التي عرفتها البشرية ، وصفها أعيان مدينة قسنطينة في رسالة وجهوها الى البرلمان الانجليزي سنة 1833 " بالعمل الشنيع، لم يسبق أن سجل في تاريخ الطغاة "[30] ، و أضافوا بأن الدولة الفرنسية —حسب زعمها–جاءت تحمل معها رسالة الحداثة و العصرنة و الحضارة و المدنية ، و إقامة العدل و القضاء على الهمجية في هذا البلد ، و لكن في واقع الأمر ، فالذي جاءت به هو الخراب و الظلم و البربرية ، بعينها ، و أن القتل الذي يقترفونه يوميا في هذا البلد ، اشد قسوة و شناعة من كل المظالم ، التي عرفت حتى الآن، و ليس هناك ظلم مثال " للظلم و الجور ، يمكن مقارنته بالطغيان الفرنسي ، فهو يتجاوز كل الحدود ، و يتعدى خيال كل الطغاة منذ أن خلق الله آدم إلى يومنا هذا " حسب تعبير أعيان قسنطينة.[31]

لقد اقترف الجيش الفرنسي في الجزائر ، كل أنواع الجرائم المتضمنتين في الفقرتين **' أ '** و **' ب '** و زاد عنهما ، حسب المصادر الفرنسية و اللجنة الإفريقية و الوثائق الجزائرية ، و ما تركته هذه الحرب من آثار الدمار و الخراب ظل عالقا في أذهان و ذاكرة الأمة الجزائرية طوال الاحتلال ، و بذلك يمكن القول بأن الدولة الفرنسية ، تتحمل تبعات الخسائر البشرية و المادية و المعنوية، و المسؤولية التاريخية و القانونية و الأخلاقية ، و ما انجر عن هذا الاحتلال ما بين القرنين 1830و 1962 . فضلا عن الديون السابقة، بحكم الاتفاقيات و المبادلات التجارية الدولية المبرمة بين البلدين.

و سنوضح هذه الأعمال الإجرامية ، في الأحداث التاريخية المستمدة من الوثائق الفرنسية :

الاحتلال حرب صليبية:

لقد تأسست الدولة الفرنسية في الجزائر على المقومات الصليبية و العنصرية و على نظامين قانونيين و سياسيين ، احدهما يعامل به المعمرين المستوطنين يتضمن كامل الحقوق الإنسانية الأساسية،التي جاءت بها وثيقة الثورة الفرنسية.

و ثانيهما ينفذ على الأهالي الجزائريين بالقوة خالي من حقوق الإنسان و كرامته و هو قانون غير عادي و عنصري تمييزي ، يكرس سلطة السيد على المسود ، نتيجة حرب دينية عرقية ، بأتم معنى الكلمة ، توضحها الأحداث التاريخية و خطب و تصريحات و رسائل و كتابات القادة السياسيون و العسكريون و المثقفون ، و لاسيما المدونة منها في مصنفاتهم العديدة ، و خير دليل على ذلك ، التقرير الذي رفعه وزير الحربية الفرنسي " الدوق دي كليهون" الى الملك الفرنسي " شارل العاشر" يقول فيه: **"إنها العناية الإلهية ، التي قضت بأن تنادي سليل القديس ' الويس التاسع' ، ليأخذ بالثأر، و ليقتص للدين (المسيحي) و للانسانية ، و لسنا في حاجة الى اقتناع جديد ، بأنه لا سبيل الى استقرار الأمن في الجزائر ، إلا بإبادة أهلها عن بكرة أبيهم"**(32).

و يتضح من هذه الفقرة ، أن وزير الحربية الفرنسي جعل من احتلال الجزائر حرب صليبية و إبادة ، ينتقم فيها للصليب و للويس التاسع الذي توفي

سنة 1270م في الحملة الصليبية الثانية التي وجهها الى تونس[33] دون أن يحقق الهدف المنشود بفشله في ذلك، و لهذا فقد ناداه بسليل " الويس التاسع" لاحتلال الجزائر و تنصيرها و إبادة أهلها.

و كان الفرنسيون يأملون في أن تكون الجزائر هي البوابة التي تدخل منها الحضارة الغربية و الديانة المسيحية الى إفريقيا كما دخلتها في عهد الرومان و بالتالي ينتصرون على الحضارة العربية الإسلامية.[34]

و عن التنصير يدعو كاتب الجنرال بيجو في تصريح له بمدينة قسنطينة بمناسبة الاحتفال بتحويل مسجد حسن باي الى كنيسة قائلا: " **إن آخر أيام الإسلام قد دنت و في خلال 20 سنة ، لن يكون للجزائر اله غير المسيح ، و نحن اذا امكننا ان نشك ، في ان هذه الأرض تملكها فرنسا ، فلا يمكننا أن نشك على أي حال انها قد ضاعت من الإسلام الى الأبد ، اما العرب فلن يكونوا مواطنين لفرنسا الا إذا أصبحوا مسيحيين جميعا**"[35].

و قد اعد رئيس الوزراء الفرنسي مشروعا في 30 جوان 1833 أي بعد ثلاث سنوات من احتلال الجزائر العاصمة ، لتنصير الأهالي و تمسيحهم و كتب في هذا الشأن إلى المقتصد المدني في الجزائر لتطبيق المشروع مع رجال الدين.[36]

و يقول القسيس لافيجري في هذا الصدد:" **علينا أن نجعل من الأرض الجزائرية مهدا لدولة مسيحية ، تضاء أرجاؤها بنور مدنية منبع وحيها الإنجيل و تلك هي رسالتنا**"[37].

و كان هذا الأخير يتجول في المناطق المحتلة من الجزائر ، يحمل بيده اليمنى الصليب و بيده اليسرى الخبز و الدواء يفتش عن اليتامى و المرضى لتنصيرهم ، و قد تمكن من تنصير الكثير منهم.[38]

و كان الجنرال بيجو الحاكم العام في الجزائر ، يجمع أطفال الجزائر اليتامى و يسلمهم الى القسيس " بريمو" و يقول له بصريح العبارة الصليبية " **حاول يا أبي أن تجعلهم مسيحيين ، فإذا فعلت ذلك ، فلن يعودوا الى دينهم و لا يطلقوا علينا النار**"[39]

و قال احد المعمرين : " **إن الاحتفال اليوم ليس احتفالا بمرور مائة عام على احتلالنا للجزائر ، و لكنه احتفال بتشييع جنازة الإسلام**"[40] ، و قال آخر :" **إننا جئنا إلى الجزائر ، لندفن القرآن لا ليحيا**"[41].

الاحتلال حرب عنصرية:

أما فيما يتعلق بالعنصرية ، فقد روج بعض المثقفين نظرية التفوق العرقي و الجنس الأوروبي عامة و الفرنسي على وجه الخصوص ، على سكان الجزائر و إفريقيا و دافع بوديشون Eugene Bodichon و هو طبيب و جمهوري مشهور ، على نظرية إبادة الجنس الأدنى الغير قابل للتحضر ، لان مصير هؤلاء في نظره هو الاندثار ، و أن ذلك يعد ضروريا للبشرية .[42] و كتب بوديشون عدة كتب و دراسات ، وضح فيها حرب الأعراق بين الجنس الأوروبي ، و باقي الأجناس في القارات الأخرى ، و منهم أيضا غاسبان ، الذي يرى ، بان الإبادة هي اول الوسائل التي يستعملها الاستعمار ، و يشاطره في ذلك

ميشلي.[43] فكانوا يطاردون الأهالي لأنهم يعرقلون الاستيطان، و فكروا في استبدالهم بالزنوج و الصينيين لأنهم طيعين و خدومين.[44]

و وصفوا الجزائري بأنه حيوان مفترس عدوا للحضارة ، و أن إبادته ضرورية يقارنونه بالحيوان المفترس الخطير ، الذي يتعين علينا مطاردته و قتله.[45] و هي الأوصاف ذاتها التي كان الرومان يصفون بها سكان المغرب الكبير ، و يقول " هاين" في هذا الصدد ، لنطردهم و لا نرحمهم ، فالرحمة معهم خارجة عن نطاقنا"[46].

و يذكر " سوكليير" عن الاهالي الجزائريين بأنهم "**طيور جارحة**". و وصفهم النقيب " لاباسيت Lapasset "أيضا بأنهم حيوانات يشبهون "**ابن آوى**" الذي لا يأتلف ابدا.[47]

أما الجنرال "بيجو" فيقول عن اهل الجزائر ، بانهم مجموعة من " ابن آوى" يجب إحراقهم في الكهوف التي يختبؤون فيها.[48]و يرى ضرورة تدمير الجنسية العربية ، و قوة الأمير عبد القادر لكي تفرض سيطرتها المطلقة و إخضاع الجزائر [49].

و لم يغفل هذا الوصف العنصري أيضا نقيب الفيلق الأجنبي "لافيزون Laviaisonne" ، فنعت الأمير عبد القادر بأنه **'**حيوان مفترس**'** ، و رجل دين مرابط دموي ، يجب مطاردته و قتله ، كما وصفوا الجزائريين بانواع مختلفة من الحيوانات و منهم الزواحف و الخفافيش [50]. و هي أمور تدل على العنصرية العرقية و التعالي.

و يسجل الأستاذ (ل.مول) L.moll ، و هو أستاذ في معهد الفنون و الحرف ، الملكي إن الأمر الذي بيننا و بين الجزائريين ، هو الصراع الذي يدور بين البشر(يعني الفرنسيين) و بين الحيوان (يعني اهل الجزائر) على سطح الأرض ، و يشير الى أن كل جنس غير كفىء للحضارة و التطور ، يجب أن يندثر بالضرورة .[51] و يضيف ان الجزائريين قوم خطيرين و في الدرجة السفلى للانسانية ، و لهذا يجب معاملتهم معاملة الهنود الحمر، و لا يعد ذلك جريمة ، بل خدمة للانسانية .[52] و أرسل تهديدا للأهالي إما الخضوع أو التهجير أو الإبادة.[53]

و يشاطر الكاتب "بوديشون Bodichon " ، افكار "مول" و تصوراته ، و يذهب ابعد منه ، الى أن الإبادة ، لم تعد تنحصر في سياسة عقابية رهيبة، بل أصبحت ضرورية للقبائل الثائرة على فرنسا ، و أن هذه الإبادة التي تضرب سكان الجزائر ، ليس بسبب أفعالهم ، و إنما بسبب جنسهم ، لان وجودهم أصبح غير مرغوب فيه .[54] و أنها لا تقتصر على بعض القبائل العربية فقط ، بل من الضرورة أن تمتد الى جميع السكان القاطنين في الجزائر ، حتى تصبح هذه البلاد منسجمة عرقيا و دينيا و ايجابيا ، و أن إبادة الأجناس المنحطة السفلى ، فهي طريقة ايجابية لتحسين نوعية الإنسانية حسب تعبير بوديشون.[55]

و قد ظلت هذه النظريات سائدة و متداولة بين المثقفين و السياسيين الفرنسيين خلال القرن 19م و النصف الأول من القرن 20 ، و هي الثقافة التي أصبحت توجه سلوكاتهم و نظرتهم للأجناس الأخرى الغير أوروبية ، حتى أن الفيلسوف الفرنسي " جان بول سارتر" J.p.sartre، كتب في مقدمة كتاب

لفرانز فانون Franez fanon، بانه منذ فترة زمنية ، كانت المعمورة الكونية ، تشتمل على مليارين و خمسمائة مليون نسمة ، فكان في نظر الساسة و المثقفين الأوروبيين نحو خمسمائة مليون نسمة فقط ، ينتمون الى سلالة البشر ، و هي نظرة عنصرية عرقية بامتياز ، أصبحت تتحكم في الفكر الثقافي و الفلسفي و السياسي للغرب المسيحي.[56]

و في نفس السياق العنصري يمكن أن نشير الى مثال آخر ، و يتمثل في شخصية صار لها وزنها الانساني و بعدها العالمي تدعى " هنري دوران" Henri dorane و هو رجل دين مسيحي سويسري الجنسية ، متشبع بالانجيل و التوراة و بأفكار " سان سيمون Saint simone الانسانية ، كان من المعمرين الذين حطوا رحالهم في خراطة و عين الكبيرة و سطيف و جيجل مع الجالية السويسرية ، التي اختارت هذه المناطق ، و استقرت فيها و الاستلاء على الاملاك الخاصة و العامة[57] ، و قد اغتنم " هنري دوران" العلاقة الطيبة التي كانت تربطه بالجنرال " سانت آرنو" قائد الحملة التدميرية في المنطقة ، فصار من كبار الملاكين للأرض ، فكان يشجع أهل بلاده من السويسريين ، على الهجرة للجزائر ، و يكتب لهم مغريا لقدومهم قائلا : " **ان طول السنبلة الواحدة في هذه المناطق تساوي طول الرجل ، لكن الناس لا يحصدون**".[58]

و كان يرى بأم عينيه ، المجازر التي كان يرتكبها الجيش الفرنسي بقيادة " سانت آرنو" في المنطقة و في جبال البابور و جبال جيجل ، لكن ضميره لم يتحرك و لم يتأثر وجدانه لهذه الجرائم ، و عندما سافر الى أوروبا و شاهد الحروب بين فرنسا و ايطاليا و النمسا و قسوتها ، اهتز ضميره و تحركت

مشاعره لهول هذه الحرب التقليدية ، فشعر بالمأساة الانسانية في أوروبا ، بينما ظلت عيناه مغلقتين ، و ضميره نائم و أحاسيسه في سبات عميق من الحرب التي كان يقودها صديقه "سانت آرنو" ضد الجزائريين ، أي أن سكان الجزائر في نظره ، و نظرته إليهم لا تختلف عن نظرة الأوروبيين لهم ، فقد انشأ هيئة الصليب الأحمر الدولي في أوروبا و تعامى على ما يجرى في ارض الجزائر.(59)

و اعتبر القادة العسكريون و الساسة الفرنسيون ، إن اندثار العنصر الجزائري ضروريا و ايجابيا ، و اجتماعيا و اقتصاديا و سياسيا ، لأنه يؤدي الى التوازن بين الأهالي و المعمرين ، و لهذا عملوا على قتل ما يزيد عن 1/3 السكان في العشرية الأولى من الاحتلال.(60)

الاحتلال حرب إبادة :

لقد تحدث بعض القادة الفرنسيين عن ضرورة إبادة الجزائريين و اقترح آخرون التهجير و النفي و الإبعاد التدريجي للأهالي ، وفق فكرة " رقعة الزيت La tache d'hiule أو إبعادهم دفعة واحدة نحو الصحراء .(60م)

و لهذا استعمل الجيش الفرنسي كل الوسائل الجهنمية اللا انسانية ، للظفر باحتلال الجزائر ، بما في ذلك القتل الجماعي ، و إبادة الجنس العربي،كما جاء في تصريحاتهم و كتاباتهم،ففي هذا الصدد يقول احد الضباط العسكريين ، و هو يفتخر بهذه الأعمال الوحشية " **لقد كانت حملتنا تدميرا منظما،أكثر منها عملا عسكريا،نحن اليوم في وسط جبال مليانة،لا نطلق الا قليلا من**

الرصاص ، و إنما نمضي وقتنا في حرق القرى و الأكواخ ، و ان العدو يفر أمامنا سائقا أمامه قطعانا من الغنم".[61]

و في رسالة أخرى يقول : " **إن بلاد بني مناصر بديعة جميلة جدا ، لقد أحرقناها كلها ، آه أيتها الحرب ! كم من نساء و أطفال اعتصموا بجبال الأطلس المغطاة بالثلوج ، فماتوا هناك من الجوع و البرد و ليس في جيشنا سوى خمسة من القتلى و أربعين جريحا**"[62] ، و هذا دليل آخر بان الجيش الفرنسي تمادى في العنف و الوحشية ، لتنفيذ المذابح الجماعية ، من اجل تحقيق هدف الاستعمار.

و في 26 نوفمبر 1830 ، نظم الجيش الفرنسي بقيادة الجنرال كلوزيل مذبحة رهيبة ، في مدينة البليدة ، تفنن الضابط " تروليير" قائد الكتيبة في التركيز على القتل الجماعي ، راح ضحيتها الآلاف من الرجال و النساء و الأطفال ، حول بذلك المدينة الى مقبرة جماعية في بضع ساعات.[63]

و في 7 أفريل 1832 م أباد القائد " دوروفيقو" ، افراد قبيلة " العوفية" في وادي الحراش ، استعمل فيها أسلوب المباغثة ليلا ، فقتل جميع أفرادها العزل بالرغم من حالة السلم المبرمة مع الجيش الفرنسي ، ذهب ضحيتها الاطفال و النساء ، بدون رحمة و لا شفقة ، و هو عمل ' شنيع لم يسبق مثله في تاريخ البشرية ' حسب تعبير أعيان قسنطينة [64] ، فنهبوا القبيلة و باعوا الأشياء التي اغتصبوها في سوق باب عزون بالعاصمة ، و من جملة الاشياء التي شاهدوها في السوق أساور لا تزال مشدودة ، الى زنود نساء مقطوعة و أقراط الأذن دامية[65].

و يذكر حمدان خوجة في كتابه " المرآة " ، بان اغلب الجنرالات الذين مروا على الجزائر ، لم يترددوا في اقتراح إبادة الأمة الجزائرية بأكملها ، مركزين اقتراحهم ، على قلة سكان الجزائر من جهة ، و شدة توحشهم من جهة أخرى و كانوا يقدرون تعداد سكان الجزائر آنذاك ما بين ثلاثة ملايين و مليونين نسمة، و يعلق حمدان خوجة على ذلك بقوله : " **لو افترضنا أن هذا العدد القليل لا يتجاوز المليونين ، كما ذكر بعض الكتاب ! الا يكون إبادة مليونين من الناس جريمة ! في نظر الشعوب المتحضرة و الانسانية جمعاء**"[(66)].

و في سنة 1833 م تعرض حمدان خوجة الى قضية الامة الجزائرية العويصة و الخطيرة و التي تتكون من 10 عشرة ملايين نسمة ، و ليس ثلاثة ملايين نسمة كما ذكر الكتاب الفرنسيون ، و أن الأعمال التي يقوم بها الجيش الفرنسي جعل السكان يتناقصون يوما بعد يوم، و يسيرون نحو الانقراض ، بسبب الحرب و الإبادة و الظلم و الطغيان المسلط عليهم منذ ثلاث سنوات من الاحتلال ، و دافع حمدان عن إحصائه لعدد سكان الجزائر معتمدا على عدة عوامل منها : إن الجزائر بلد خصب في فلاحته ،و صحي في هواء جباله،و عدم وجود أمراض مزمنة و لا كريهة تؤثر على سكانه ، و هي أمور تساعد على الخصوبة و ازدياد عدد السكان ، و تقلل من عدد الوفيات ، و انه اعتمد في جمع مادة الإحصاء على معرفته بالأيالة و تجواله فيها من أقصى الشمال الى أقصى الجنوب و من الغرب الى الشرق ، و معرفته بالمناطق و القبائل التي تعيش داخل الايالة ، و من خلال زيارته للمرابطين و اهل الزوايا و رؤساء القبائل و العشائر ، و احتكاكه بجباة الضرائب،في المدن و القرى ، و بالتالي استطاع أن يعرف تقريبا عدد

الأسر و العشائر ، فضرب عدد الأسر في 05 خمسة أفراد في المتوسط ، و لهذا أكد في كتابه المرآة أن عدد سكان الجزائر آنذاك نحو 10 ملايين [67] و ليس كما ذكر الفرنسيون ، لتبرير مجازرهم و إبادتهم و مذابحهم.

استمر الجيش الفرنسي في حرب الابادة ، و هي جرائم دولية بموجب القانون الدولي الانساني ، و الدليل على ذلك ما كتبه احد الضباط :" **إننا ذمرنا تذميرا كاملا جميع القرى و المداشر و الأكواخ ، و أحرقنا الأشجار و الحقول ، و الخسائر التي الحقتها فرقتنا بأولائك السكان ، لا تقدر ، و اذا تساءل البعض هل كان عملنا خيرا ام شرا ؟ فاني أجيبهم ، بان هذه هي الطريقة الوحيدة لاخضاع السكان و حملهم على الرحيل**".[68]

و علل الجنرال بيجو هذه الأعمال الوحشية ، و برر عدم احترامه للقوانين الدولية و للأعراف الانسانية ، في حربه ضد الجزائريين ، بان الرضوخ الى هذه الاجراءات و القوانين سوف تؤخر عملية الاحتلال.[69]

و عندما انتقد بعض الكتاب و بعض النواب – من كان لهم ضمير انساني- اعمال الجنرال بيجو في الجزائر و فضاعة الجرائم و بشاعتها ، رد وزير الحربية عليهم بقوله : " ان مراعاة القواعد الانسانية ، تجعل الحرب في الجزائر الى ما لا نهاية ".[70] و يعني هذا ان الغاية تبرر الوسيلة ، فالجيش الفرنسي تعمد ارتكاب المجازر و اقتراف الجرائم الدولية ، و استعمال الابادة الجماعية ، و التذمير الشامل و التهجير و الطرد الجماعي للسكان من اجل الاحتلال.

فقد غلبت عليه النزعة الوحشية و العدوانية و العنف المفرط ، حتى أطلق على طوابيره " مشاة الموت" و " طوابير جهنمة".

و الجنرال بيجو هو صانع التصفية الدموية في الجزائر ، و الأكثر وحشية في تعامله مع الحرب بأرتال الغزو المبني على التخريب و التدمير المنسق للمناطق الغير خاضعة له ، و كان يصرح لجنوده و ضباطه ، و حتى لمسؤوليه بأنه" لا يجب أن نجري وراء العرب ، بل يجب ان نمنعهم من أن يبذروا أرضهم و يحصدوا محاصيلهم أو يرعوا مواشيهم"[71]. و لهذا قال عنه ريتوا Ritois بأنه شن حرب تخريبية شاملة في الجزائر.[72]

و أضاف ريتوا Ritois ، إن الحرب كانت طويلة شرسة مفسدة حتى للجنود و الضباط الذين تدربوا ، على العنف و الوحشية ، و على فقدان الشعور الانساني.[73]

و قد وصف بيجو هذه الحرب بأنها "اصطياد للبشر"[74] ، بحيث كلفت من الأرواح البشرية ، أكثر من أي غزو استعماري آخر[75] ، فكانت النتيجة أثقل بالنسبة للمسلمين الجزائريين ، بحيث دمر وطنهم ، و أمسى وضعه الاقتصادي و الاجتماعي ، صعبا من جراء الحرب المذمرة المرتجلة و المنظمة و المستمرة للانسان و الحيوان و المحاصيل الزراعية ، فعم بذلك الوباء في البلاد و اصبح يحصد السكان الذين كانوا في حاجة الى التغذية.[76]

و يصرح الجنرال بيجو في احدى خطبه في جانفي 1840 ، بأنه يجب على فرنسا أن تذمر الجنسية العربية في الجزائر ، و تذمير قوة الأمير عبد القادر،حتى

تفرض وجودها و قوتها المطلقة في الجزائر،و هي الاستراتيجية التي اعتمدها الجنرال في حربه للجزائر ، و ان تعيينه كحاكم عام لهذه الربوع ، كان منعرجا سياسيا و عسكريا خطيرا بحيث وضع حدا لذلك التردد في البلاط الفرنسي دام عشر سنوات ، فانطلق في حرب اتسمت بالعنف و الإبادة،و كان أسلوبه تقتيل المدنيين و الأسرى و التمثيل بجثتهم لترويع الأهالي و تخويفهم ، فكانوا يؤتون بأشلاء القتلى و رؤوسهم و آذانهم ، غنائم ثمينة للجنود ، الذين يتقاضون مقابل ذلك المنح و علاوات على كل رأس وأذن.(77)

و يرى بأن الحرب التي يخوضها في الجزائر، ليست حرب بنادق و مدافع و رشاشات ، و إنما تكمن في نزع وسائل العيش من العرب ، و ثمرات أرضهم، و يعتبر ذلك هو الحل للتخلص منهم و من مقاومتهم.(78)و تقدم بيجو باقتراح امام النواب يوم 14 ماي 1840 يتضمن الغزو الشامل للجزائر يقول فيه : "**يلزم غزو كبير بافريقيا يشبه ما قام به " الافرنج La Francs و ما قام به القوط Les gothes في اسبانيا ، و يضيف " هذا هو السبب الذي يدعونا الى أن نكون أقوياء بفضل توطين سكان أوروبيين و بفضل الجيش**"(78م)

و يشير الجنرال " سانت آرنو" تلميذ بيجو في هذه الأعمال ، الى الجرائم التي ارتكبها في الشرق الجزائري عامة و في قسنطينة على وجه الخصوص ، بحيث تمكن من ان يمحي من الوجود عشرات المئات من القرى و المداشر ، و أقام في طريقه جبالا من جثة القتلى.(79)

و عن سقوط مدينة قسنطينة ، التي دارت فيها معارك ضارية ، لان السكان ابلوا البلاء الحسن في مقاومة العدو ، حتى استلزم القتال ان يدور في الأزقة و الدروب و في داخل البيوت ، فيقول عن ذلك " سانت آرنو" : " **لم تترك الحرب احدا على قيد الحياة ، و لم نأسر أحدا**".[(80)]

و يبدو أن القائد سانت آرنو ، كان مندهشا ، من شدة المقاومة و من كثرة القتلى و هول الحرب و متأثرا ببشاعة المجازر في المدينة فقال : " **يا له من مشهد و يا لها من مجزرة ، كان الدم يسيل سيلا على الدرج...**"[(81)].

و عندما استسلمت المدينة، تركوها للنهب و الاغتصاب مدة ثلاثة أيام كاملة من قبل الجنود، و تحت أعين الضباط الساميين، بل و بتشجيع منهم فتضرر المدنيون و دفعوا ثمنا غاليا و لاسيما منهم النساء.[(82)]

و في عام 1843 اقترف الرائد " منتانياك " في مدينة سكيكدة جريمة قطع رؤوس العرب ابتداءا من سن ال 15 سنة ، و قال في هذا الصدد :" **يجب أن نبيد كل من يرفض الزحف كالكلاب عند ارجلنا** ".[(83)]

و يضيف نفس الرائد في رسالة لأحد أصدقائه : "**ماذا كنا نفعل بالنساء كنا نحتفظ ببعضهن كرهائن ، بينما كنا نقايض أخريات بأحصنة ، و بيع ما تبقى منهن بالمزاد العلني كقطيع غنم**"[(84)]. و يعني هذا أن فرنسا كانت تشجع و تقوم بتجارة الرقيق ، ضاربة عرض الحائط بمبادىء ثورتها ، في الأخوة و العدالة و المساواة ، التي جاءت تشع بها على الشعوب.

و يذكر في موضع آخر : " **هذه هي طريقتنا في الحرب ضد العرب يا صديقي! قتل الرجال و اخذ النساء و الأطفال ، و وضعهم في بواخر و نفيهم الى جزر الماركيز ، و باختصار القضاء على كل من يرفض الركوع تحت أقدامنا كالكلاب**".[85]

و يصف في كتابه " رسائل جندي " القمع الوحشي للسكان في إحدى المعارك : " **لقد أحصينا القتلى من النساء و الأطفال فوجدناهم ألفين و ثلاثمائة قتيل (2300) أما عدد الجرحى فلا يكاد يذكر لسبب بسيط و هو أننا لم نكن نترك جرحاهم على قيد الحياة**".[86]

و في أفريل من سنة 1845 ، قضى الجيش الفرنسي على قبيلة الأوسية ، ليلا ، بينما كان أفرادها نياما في خيامهم ، فقتل الجميع رميا بالرصاص أو بالسيف ، دون تمييز ، فمات الرجال و النساء و الأطفال.[87]

و في تاريخ 18 ماي سنة 1845 ، خرج الجيش الفرنسي في حملة الى قرية بمنطقة جرجرة ، فقتل كل من قاومهم بالسيف ، و احرق الباقي من السكان في منازلهم .[88]

تذمير القرى و المداشر:

ففي شهر ماي من سنة 1839م ، توجه القائد " سانت آرنو " الى مدينة جيجل عبر مسالك الجبال المحيطة بها ، فدخل المدينة بدون قتال ، و منها توجه الى مشارف المدينة ، حيث قوبل بوابل من الرصاص المكثف فقتل العديد من جيش العدو و رجاله ، غير ان البنادق الصغيرة و السلاح الأبيض لا تصمد أمام المدافع و الرشاشات الثقيلة ، و لاسيما أن عددهم لا يتعدى ستمائة مقاتل على أقصى تقدير ، بينما عدد العدو يعد بالآلاف ، فضلا عن جودة التسليح و التدريب ، دارت الحرب عدة أيام ، و يقول " سانت آرنو " في هذا الشأن : " **إنها الحرب الحقيقية معارك بين العمالقة ، استمرت عدة أيام متتالية ، حققنا المعجزات خلالها**".(89)

كانت المعركة شديدة في ضواحي جيجل ، ابدى المقاومون فيها بطولة نادرة و شجاعة كبيرة في الميدان ، بالرغم من انها معركة غير متكافئة في السلاح و العدد ، تمكن العدو في النهاية من التفوق على المقاومين ، الذين ظلوا يقاتلون حتى الموت ، و قتلوا من العدو ما يزيد عن عشرين جنديا ، و أصيب احد الضباط بجروح خطيرة و هو احد مساعدي القائد " سانت آرنو " و قتل الرائد الذي يقود الطابور الأجنبي ، فتعجب قائد الجيوش الفرنسية في هذه المنطقة " سانت آرنو " من بسالة المقاومين و شجاعتهم و ثباتهم في القتال قائلا: " **لم أشاهد قتالا شبيها بالذي نخوضه هنا ، إذا استثنيت ، ما شاهدته أثناء الهجوم على مدينة قسنطينة** " و يضيف " **إن هؤلاء القبائل ، أكثر الجنود بسالة في إفريقيا برمتها ، فمنهم من تقدموا الى صفوفنا ، و جابهوا أسلحتنا**

الثقيلة ، قبل ان تحصدهم نيران الرشاشات و هم على بعد خطوتين "، فكانوا يدافعون بكل شجاعة و إقدام ، فحينما يسقط الأب مثلا في المعركة،يستمر أبناؤه في المقاومة و القتال امام جثة الوالد ، الى ان يسقطوا جميعا فوقها،برماح العدو ، و يصف " سانت آرنو " هذه البطولة ، بانها سلوك متوحش غير حضاري على الاطلاق ، و أن جنوده لا يمكنهم بأي حال من الأحوال تجاوز هذا المستوى من القتال و البطولة ، لكن الفصل عنده في المعركة ، يعود الى التدريب و التسليح الجيد و الانضباط و الحضارة.[90]

و في شهر جوان ، قامت مجموعة من القبائل ، القاطنة في الجبال بهجوم على جيش العدو ، فاقتحموا مواقعه على حين غفلة منه ، بطلقات نارية مكثفة و تكبيرات مرعبة ، الا أن العدو التف حولهم بالمدافع و الرشاشات فقتل منهم خلقا كثيرا ، و نكل جنوده بالقتلى ، حتى صارت "**أشلاؤهم و قطع من عظام رؤوسهم وفتات المخ متناثرة حول خنادق العدو**" حسب تعبير " سانت آرنو "[91].

و بعد هذه المعركة الحاسمة تمكن الجيش الفرنسي ، من السيطرة على بعض المواقع ، التي حصنها ، ثم شرع في بناء قصبة مدينة جيجل سنة 1839م بعد أن أزاح و هدم أكواخ و منازل الأهالي.[92]

ثم بدأ المعمرون يفدون إليها للاستطان فيها ، و لاسيما منهم المتخصصين في بيع الكحول و الجبن و الكبريت.[93]

غير أن " سانت آرنو " لم يتمتع بهذا النصر ، فقد انتشرت في جيشه بعض الأمراض الفتاكة ، حتى صارت العيادات و المستشفيات غير قادرة على استيعاب المرضى و استقبالهم ، و لم يمنع منها القائد " سانت آرنو "الذي حمل على جناح السرعة الى مستشفى حسين داي بالجزائر ، و لهذا قال : " **يا لها من حملة غير مجدية ، فبعد ان تمتعت بظلال المجد هنيهة ها قد جاء السقم و المرض الشنيع**".(94)

و في شهر فيفري 1851م وصل قرار الجنرال راندون Randon وزير الحربية الفرنسي الجديد ، بالموافقة على الحملة الثانية لنواحي جيجل ، لإخضاع القبائل التي لا تزال لا تخضع للاحتلال ، بعد اثنتي عشر سنة ، من الحملة الاولى التي قادها " سنات آرنو" سنة 1839. جهز هذا الأخير جيشا يتكون من ثمانية آلاف مقاتل مقسم على اثنتي عشر كتيبة و أربعة سرايا ، و ثمانية قطع مدفعية جبلية تحت قيادته ، و بمساعدة جنرالين هما " لوزي " و " بوسكي " ، و كانت سهول المنطقة محاطة بالمستوطنات ، كانت تخشى هجمات المقاومين من القبائل القاطنة في الشعاب الضيقة و الجبال الوعرة ، هروبا من الاحتلال.(95)

ففي 11 مارس سنة 1851 ، تقدم جيش" سانت آرنو " في حملته هذه نحو القبائل ، هاجم فيها ممرات الجبال و لاسيما منها ممر " بني عسكر" فقام بتذمير القرى و المداشر و قتل السكان بدون تمييز،و حرق الغابات و الأشجار المثمرة و أشجار الزيتون بكل قسوة و عنف،و ذكر ذلك " سانت آرنو "في إحدى رسائله لزوجته يصف الحرب الدائرة في الجبال قائلا : " **بينما أنا جالس في**

خيمتي،أشاهد المداشر العربية تحترق ، أرجو أن يكون الدرس جيدا و مفيدا لهم."(96)

و قد دامت هذه الحملة شهرين كاملين ، وصل خلالها جيش العدو الى مدينة جيجل ، حيث وجد القائد " سانت آرنو " صديقه بيليسييه Pelissier في انتظاره ، و كان الجنرال يهدف من خلال هذه الحملة ، اكتساب الشهرة على المستوى العسكري و الإداري مجردة من الاعتبارات السياسية كما يشير ، و لان القبائل العربية المحيطة بالمستوطنات لا تزال تضمر العداوة لهم ، و أن إقامتهم في هذه الجبال لا تبتعد عن المستوطنات الزراعية إلا بساعتين اثنين فقط.(97)

فقد اعد لها " سانت آرنو " الامكانيات العسكرية الهائلة ، فذمر بها المنطقة تذميرا شاملا ، بحيث احرق ما يزيد عن 200 قرية و دشرة ، و أضرم النار فيها جميعا ، و خرب البساتين و الأشجار و افسد البيئة (98)، و تمكن من قتل ما يزيد عن 200 قتيل و نحو800 جريح من المقاومين ، الذين ابلو بلاء حسنا و بسالة قوية في الدفاع عن أرضهم و عرضهم حتى بالسلاح الأبيض و الصدور العارية.

أما خسائر العدو حسب " سانت آرنو " دائما ، فلم تكن أكثر من 1/8 من خسائر المقاومين ، و هي نسبة تدل على عنف المقاومة ، لأن القبائل في هذه المنطقة كانوا يقاومون بشجاعة نادرة.(99)

استمرت الحملة انطلاقا من مدينة جيجل في كل الاتجاهات ، فتصدت لها القبائل بأعداد قليلة لا تزيد عن مائة بندقية،فكانت النتيجة سلبية على أهل البلد،انتصر فيها العدو ، بإمكانياته الهائلة،و لم يكتف بقتل البشر و الحيوان،بل امتدت يده الى المحاصيل الزراعية و الأشجار فأشعلها نارا.(100)

و في 17 جويلية من سنة 1851م أنهى الجنرال حملته بحصيلة ثقيلة في صفوف المقاومين المجاهدين ، قتل منهم أزيد من 200 مقاوم ، حتى أصبح المخيم الذي يقيم فيه الجنرال مملوءا بالأسلحة المحجوزة ، و بآذان القتلى و جماجمهم.(101)

فكافأت الدولة الفرنسية هذا القائد ، بترقيته الى رتبة جنرال من الدرجة الثالثة و كرم برسالة شكر و تهنئة من قبل " الويس نابوليون " و هو الحلم الذي كان يراوده ، و الطموح الذي كان يحفزه و يدفعه الى ارتكاب المجازر و الأفعال الشنيعة و الجرائم في حق السكان العزل ، فكانت ترقيته على جماجم الجزائريين و على جثثهم.(102)

حرب المحرقة:

يعترف الجنرال " كافياك " وهو في كامل قواه العقلية ، بجريمة إبادة قبيلة بني صبيح سنة 1844م بالشلف بحيث اختفت هذه القبيلة بكل ما تملك من متاع و حيوان ، في مغارة خوفا من بطش العدو ، لكن هذا الأخير لم يرحمهم ، فجمع لهم الحطب و سد به فوهة المغارة،و أضرم النار فيها فمات الجميع خنقا بالدخان و حرقا بالنار.(103)

و تشير الوثائق الفرنسية،الى محرقة أخرى في مغارة الفراشيش بناحية الظهرة في شهر جوان من سنة 1845م ، قام بها العقيد " بليسييه" المكلف بمطاردة أولاد رياح،و هي قبيلة لم يتم إخضاعها للسلطة الفرنسية، لأن مواطن تواجدها ، تشمل على كهوف و مغارات عديدة صعبة المنال،كان عدد أفراد القبيلة يزيد عن ألف نسمة ، من الرجال و الأطفال و النساء،مع ما يملكون من قطعان الغنم،و بعد حصارهم داخل المغارة دام يوما واحدا،بعده لم يتوان الكولونيل في إضرام النار في فوهات المغارة ، فكانت النتيجة ألف ضحية ، حسب ضابط اسباني،كان حاضرا في هذا المشهد ، بحيث اعدموا جميعا في هذه المحرقة داخل المغارة.(104)

و قد نددت بعض الجرائد الفرنسية بهذه العملية ، التي أبادت قبيلة بأكملها ، داخل كهف لجأت للاحتماء به ، خوفا من رصاص العدو ، لكن وزير الحربية الفرنسي المارشال " سولت Soult "، دافع عن العقيد " بيليسييه" و عن تصرفاته و قال بأنه لو كان مكانه لفعل اكثر من ذلك(105). كما دافع عنه الجنرال بيجو و هنأه على ما فعل(106). فكان المشهد مرعبا ، فكل الجثث كانت عارية مستلقية في اوضاع تدل على الآلام الفضيعة التي عانوها ، قبل أن يلفظوا أنفاسهم، بالرغم من ذلك لم يستسلموا للعدو.(107)

و اقترف العدو "كارنوبير " نفس الجريمة ، في السنة ذاتها (1845) بحيث جمع الأهالي و وضعهم في مغارة ، ثم أضرم النار فيها ، فأتت عليهم النار جميعا في محرقة بشعة ، وصفها احد القادة ، بأن هذه المغارة " ظلت مقبرة جماعية مغلقة ، و بداخلها ما يزيد عن خمسمائة جثة"(108).

لم تمر الا بضعة اشهر على محرقة " كانروبير "،حتى ارتكب القائد " سانت آرنو " محرقة اخرى في كهف اختبأ فيه مئات من الأهالي العزل ، فقرر هذا الأخير ، اللجوء الى الحل الراديكالي ، و العادي في نظره كما هو في نظر جل القادة الفرنسيين،فطاف حول الكهف،و تعرف على مداخله و مخارجه، فوجده يمتد على مسافة مائتي متر ، يحتوي على خمسة منافذ ، فقام بتلغيم المسافة المحيطة به،ثم أمر بإضرام النار في فوهاته يوم 9 أوت 1845م، و انتهت بذلك هذه المهمة بهذه الطريقة اللا انسانية ، و في ذلك يقول بكل برودة : " **فأحكمت غلق كل المنافد ، و جعلت من ذلك المكان مقبرة لخمسمائة لص متطرف،لن يذبحوا الفرنسيين بعدها**".(109)

و يعترف " منتانياك" ، بالجرائم التي ارتكبها في حملته على مدينة معسكر، بقوله : " **لا يمكن تصور ما فعلناه ، بأولائك السكان المساكين،لقد حرمناهم مدة أربعة اشهر من كل وسائل العيش،فلم يتمكنوا من حصاد قمحهم، و شعيرهم،و أخذنا منهم مواشيهم و أفرشتهم و خيامهم و مواعينهم، أي أننا أخذنا كل شيء يملكونه**".(110)

لم تقتصر هذه المشاهد و هذه الأعمال الإجرامية و الإبادة الجماعية على منطقة دون أخرى ، بل أصبحت هواية لكل قائد عسكري فرنسي في الميدان، تحت أنظار الساسة الفرنسيون و الضباط السامون و المثقفون الذين يحملون شعار الثورة الفرنسية و حقوق الإنسان.(111)

كما لجأ الى جريمة إعدام الأسرى بدون محاكمة ، و قتل الجرحى بدون إسعاف ، خلافا لما تنص عليه الاتفاقية الدولية للحرب ، فضلا عن جريمة التعذيب المحظور القيام به مهما كانت الظروف.[112]

التعذيب و التنكيل بالقتلى:

لقد استعمل الجيش الفرنسي و إدارته ، كل أنواع التعذيب المعروف آنذاك ، في حق الأسرى لاستنطاقهم و انتزاع المعلومات منهم ، و لم يتورع الجنود في التوسع في هذه الوسيلة كعقاب ، فكانت الهراوات و العصي و السيوف و البنادق و السلاسل و قضبان الحديد ، و التجويع الى حد الموت و قطع بعض الأعضاء من جسم الأسير كالرؤوس و الآذان و كما فعلوا مع نساء واحة الزعاطشة ، و لم تبطل فرنسا العمل بهذا التعذيب و أساليبه إلا في سنة 1930م بمناسبة الاحتفالات بالذكرى المئوية لاحتلال الجزائر ، كما أبطلوا حكم الإعدام بالمقصلة ، و لكن سرعان ما عادت طريقة تعذيب الأهالي بأساليب أكثر وحشية زاد عدد أنواعها على أربعين نوعا في الحرب التحريرية الأخيرة.[113]

و في إطار إجراءات الترهيب و التنكيل بالأموات،حدث و لا حرج،ففي حصار واحة الزعاطشة،أقدم الجيش الفرنسي على الإبادة الجماعية لسكان الواحة الذين كبدوا العدو ما يزيد عن1500 ما بين قتيل وجريح،ولهذا قام الجنرال هربيون Herbillon،بالانتقام منهم،فحاصر الواحة لمدة شهرين،ثم اخذ جنوده يصطادون الرجال و النساء و الأطفال،و يرى بوديكور Beaudicour، ما شاهده في هذه المعارك من مجازر،اقترفت في حق سكان الواحة،من أن الجنود

الفرنسيين،و تحت نشوة الانتصار،قاموا بمطاردة المساكين الذين لم يتمكنوا من الفرار فرأيت احدهم يقطع ثدي امرأة و هو يمزح بذلك،و هي تتضرح طالبة الرحمة بقتلها، الى أن تموت،و آخر يلتقط طفلا صغيرا من رجليه و يهرس رأسه على الحائط ، فيتناثر مخه.[114]فبلغ عدد القتلى من الجزائريين أكثر من 800 شخص خلال المعارك،و قطع الفرنسيون نحو 10 آلاف نخلة و شنقوا 1500 شخصا امام الملأ.

كما قام هربيون بتنصيب مقصلة على باب معسكره،و رفع ثلاثة رؤوس و علقها مقطوعة و هي رأس الشيخ بوزيان و رأس ابنه و رأس الحاج موسى الدرقاوي بكل وحشية و نكاية[115].فضلا عن تقطيع رؤوس و آذان الموتى، و أخذ المكافأة المادية على ذلك.[116]

و يشير بوديكور أيضا عن غزو منطقة القبائل،التي تم فيها تذمير القرى و المداشر،تذميرا كاملا، لم تمنع منهم حتى الأشجار و الحيوانات،قطعوا ما يزيد عن 18000 شجرة من شجر الزيتون،و أحرقوا المنازل و قتلوا النساء و الأطفال و الشيوخ و نكلوا بجثثهم [117]،و قاموا بأفعال أخرى كما يذكر بوديكور،لا يتحملها العقل السليم [118].بل كان بعض الجنود يستحون من الفضائح التي يرتكبونها.[118]

و كان " منتانياك" قد أصدر أوامر صارمة لجنوده ، معاقبا كل من لا يمتثل إليها أو عدم تطبيقها و هي أن لا يأتون بعربي على قيد الحياة[119]،و يعني بذلك لا يريد الأسرى.[119]

و قد أطلع أحد النواب ، على أمرية عسكرية صدرت سنة 1837، تتضمن طرد الأهالي و تهجيرهم و تعذيبهم و وسائل أخرى لا يمكن النطق بها

كما يشير هذا النائب . فكل طابور من طوابير الجيش الفرنسي تزرع الرعب و الذمار بقتل الرجال و النساء و الأطفال ، و خطف المواشي و تفريغ المخازن و حرق الأشجار.[120]

امتدت هذه الانتهاكات و الجرائم ، إلى قبور الموتى القدماء منهم و الجدد، و هي رموز أساسية لها حرمتها و قدسيتها الإنسانية و السماوية ، فقاموا بتدنيسها فكانت شواهد القبور و الأحجار التي بنيت بها ،مواد استخدموها في بناء المساكن و المطاحن.[121]

كما كانوا ينبشونها و يستخرجون منها الجماجم و العظام و البقايا البشرية الأخرى ، و يبيعونها لمن يأخذها إلى فرنسا في السفن ، يستعملونها في صناعة " الفحم الحيواني" ، و هو فحم يحصل عليه بإحراق العظام البشرية في مكان مغلق ، يستعمل بعدها في الصناعة لإزالة الألوان عن المواد العضوية ، و التقليص من بعض الأكسيدات ، كما كانوا يستخدمونه أيضا في تكرير السكر و صناعته ، فعندما أطلع الأمير عبد القادر على ذلك منع استيراد السكر من فرنسا و نهى عن استعماله.[122]

و قد دافع توكفيل في البرلمان عن هذه الأعمال الوحشية التي اقترفها الجيش الفرنسي في الجزائر بقوله : " **غالبا ما سمعت رجالا أكن لهم كل الاحترام ، و لكني لا اتفق معهم يقولون ، ليس من الأخلاق حرق المحاصيل الزراعية ، و تفريغ المخازن و مباغتة الرجال و النساء و الأطفال العزل و قتلهم و حرقهم ، و انأ أقول : إن هذه الأمور مؤسفة حقا ، و لكن كل من يريد محاربة العرب يجد نفسه مضطرا لاقترافها"** ، و يضيف" **لن نستطيع**

تكسير شوكة الأمير عبد القادر ، إلا إذا جعلنا حياة القبائل الموالية له جحيما ، فنجبرهم على التخلي عنه ، و أن هذا لمن بداهة الأمور ، فان لم نمتثل لها فعلينا التخلي من الآن على مشروعنا ، و أنني أرى وجوب استعمال كل الوسائل لتضييق الخناق على تلك القبائل و التكدير عليها."(123)

الاستلاء على الأملاك:

لم يلتزم الجيش الفرنسي ، بالمعاهدة أو الاتفاقية التي أبرمت بين الداي حسين و المارشال دي بورمون يوم 5 جويلية 1830م سلم بمقتضاها الداي مدينة الجزائر و ما جاورها للقائد الفرنسي ، بل ضربت بهذه المعاهدة عرض الحائط .

فقام الفرنسيون بالاستيلاء على كل ما وجدوه و اعتبروه غنيمة حرب و أباحوا المدينة للنهب و الإغتصاب ، فاستولوا على خزينة الداي و أملاكه ، و أملاك الاتراك ، و امتدت أيديهم الى الأوقاف و هي صدقة من المجتمع الجزائري الى الفقراء والمساكين ، و الى عمل البر و التعليم و غيرها ، و اغتصبوا القصور و الدور في المدينة ، و استولوا على الزوايا و المساجد و حولوا بعضها الى كنائس و جعلوا البعض الآخر مساكن و مستشفيات لجنودهم ، و هدموا الكثير منها و أخذوا بسارياتها و أبوابها و منابرها و قناديلها و ثرياتها و أبسطتها و سجادها و أفرشتها و ألواحها و زليجها الى منازلهم.(124)

و لم يتورعوا في الاستلاء على الأراضي المخصصة للمقابر و أضرحة الأولياء الصالحين و أملاك القبائل و العشائر و طردهم منها، و هي جريمة دولية منصوص عليها في قوانين الأمم المتحدة.(125)

و نجد في تقرير اللجنة الإفريقية لسنة 1833م الى الحكومة الفرنسية ، يشير الى الضرر الذي أصاب المجتمع الجزائري ، من جراء الاحتلال جاء فيه : " **لقد حطمنا ممتلكات المؤسسات الدينية ، و جردنا السكان الذين وعدناهم باحترام الحريات الأساسية،و عدم المساس بها ، و الحفاظ على المقدسات، فأخذنا الممتلكات الخاصة و العامة ، بدون تعويض ، و دبحنا أناسا ، كانوا يحملون عهد الأمان،و حاكمنا رجالا يتمتعون بسمعة القديسين (الفقهاء) في بلادهم،كانوا شجعانا لدرجة أنهم صارحونا بحالة مواطنيهم المنكوبين**".[126]

و صرح احد النواب الفرنسيين،بأن، مدينة وهران، كانت جميلة متماسكة العمارة ، تشتمل على بنايات و قصور كبيرة ، فلما دخلها الجيش الفرنسي أصبحت خرابا،بسبب الأعمال الوحشية ، التي فاقت خراب الزلزال الذي أصابها عقب جلاء الاسبان منها،و أن الجيش أحرق مئات الآلاف من أشجار الزيتون و غيرها في المنطقة.[127]

و ندد أحد النواب أيضا،بانتهاك حقوق الإنسان في الجزائر،و تهديم أكثر من ستين 60 مسجدا جامعا و تخريب نحو10 عشرة مساجد أخرى و تذمير ما يزيد عن 90 منزلا في الجزائر العاصمة،من غير إعلام أهلها أو مخابرتهم و من غير دفع التعويض لهم.[128]

و يضيف احد الكتاب بأنه لم يبق من 166 صرح ديني و ثقافي في مدينة الجزائر إلا نحو واحد و عشرين 21 فقط ، في يد الجزائريين أي أغتصب منهم نحو 145 صرحا دينيا و ثقافيا.[129]

فقد جعل الماريشال كلوزيل الاستيطاني العنيف من سهل متيجة مستقرا للمتسولين الأوروبيين ، جلبهم من اسبانيا و جزر البليار و مالطة و ايطاليا ، و كانت القوارب العديدة ، تعبر البحر الأبيض المتوسط ، تحمل على ظهرها سيلا عارما من الفقراء و الصعاليك من فرنسا و ألمانيا و سويسرا،بحيث بلغ السكان الأوروبيين في الجزائر عام 1839م أي بعد تسع سنوات من الاحتلال نحو 25000 خمسة و عشرون ألف نسمة من بينهم 11 أحد عشر ألف فرنسي (130).

فانقض على البلاد الآلاف من البشر المتوحشين ، أستولوا على المباني و الأراضي ، و أخذوا يتكسبون بالمتاجرة في أبنية المدن ، و احتكار الأراضي و قطع الغابات ، و أصبح ساحل الجزائر الغني بالممتلكات و العمران ميدانا خاليا ، استقر فيه الصعاليك من المستوطنين ، بتشجيع من الدولة الفرنسية و من الماريشال كلوزيل خاصة.(130)

إن انتهاك الحرمات و الإعتداء على الممتلكات و نهب الأراضي تورطت فيه الدولة الفرنسية و دخلت في لعبة التشريع ، و تطويع القوانين لاستخدامه كالسلاح في نهب الأراضي الجزائرية ، رغم تعهدها باحترام ممتلكات الأهالي فأعلنت عن تكوين " قطاع أملاك الدولة Domaine "ضمت إليها أراضي الحكام العثمانيون من الدايات و الباشوات و البايات و الكراغلة ، ثم أمتد بصرها الى أراضي الحبوس و أراضي الخواص من الأهالي، بعد طردهم و تهجيرهم فاستولت في ظرف قصير على ما يزيد عن خمسة 5 ملايين هكتار من الأراضي الخصبة الصالحة للزراعة فضلا عن الغابات و العقارات الأخرى ،

و خاصة بعد ظهور الانتفاضات و الثورات من حين لآخر ، كما فعل الرومان مع أهل هذه الديار في العهد القديم ، لأن هذه الثورات لم تقف و لم تستكن ، فكانت تصادر أملاك الثوار و القبائل و المداشر و من تعاون معهم.

فقد شردت و قتلت و نفت مئات الآلاف من الأهالي ، الى جزر كاليدونيا و كايين و الماركيز و غيرها ، من الجزائريين الذين لم يتوقفوا عن الانتفاضات ، فخلال السبعين سنة الأولى من الاحتلال قامت ما يقرب من ثلاثين انتفاضة ضد الاحتلال في مناطق عديدة من الوطن ، و يعني هذا انه كانت تقوم ثورة خلال كل سنتين و نصف تقريبا ، قابلتها الدولة الفرنسية بكل وحشية و عنف.

لقد جندت فرنسا كل وسائلها لاحتلال الجزائر و الاحتفاظ بها و عينت على رأس جيوشها قادة لهم خبرة و باع طويل في ميدان الحرب، اعتمدوا في هذه الحرب إستراتيجية حربية شاملة ، في تعاملهم مع الأهالي و المقاومين ، و سنذكر بعض من هؤلاء القادة الذين ارتبط تاريخهم ، بارتكاب جرائم حرب و إبادة جماعية راح ضحيتها عدد كبير يعدون بالملايين من الشعب الجزائري و هم :

1- المارشال دي بورمون M.De baurmont 1830 -1830

2- المارشال كلوزيل M.Clauzel 1831 -1830

3- الجنرال بارتزين G.berthezene 1831 -1831

4- الدوق دي روفيڤو Duc de de rovigo et savary 1833-1831

5- الجنرال أفيزارد G .avizard 1833 -1833

6- الجنرال فاورول G .voirol 1834 -1833 (131)

الحكـــــــام العـــــــامون

1- الجنرال درولويث ديرلون G.drouet derlon 1835-1834

2- الجنرال راباتيل G.rapatel 1835-1835

3- المارشال كلوزيل M.clauzel 1837-1835

4- الجنرال دامرمون G.damremont 1837-1837

5- المارشال فالي M.valee 1840-1837

6- الجنرال شرام G.schramm 1840-1840

7- الجنرال بيجو G.bugeaud 1847-1840

8- جندالان G. de bar et G. beden 1847-1847

9- الدوق دومال Duc d'aumale 1848-1874

10- الجنرال كافينياك G .caviniac 1848-1848

11- الجنرال شارغارنيي G.charganier 1848-1848

12- الجنرال ماري مونج G.mary monge 1848-1848

13- الجنرال شارون	1850-1848 G. charon
14- الجنرال بيليسييه	1850-1850 G.pelissier
15- الجنرالدي هوتبول	1850-1850 G.d'hautpoul
16- الجنرال راندون	1857-1857 G. randon
17- الجنرال رونو	(132)1858-1857 G. renault

و عندما نقوم بقراءة تحليلية للأسماء و سنوات حكمهم نجد أن القادة الستة الأوائل، لم يحكم الواحد منهم إلا بضعة أشهر فقط في المتوسط، و هذا يدل على اضطراب الفترة و عدم استقرارها بحيث جعلت المقاومة الجزائرية الدولة الفرنسية في تخبط دائم و عدم استقرار.

أما الحكام العامون فقد حكم منهم خمسة فقط أكثر من سنتين من مجموع 17 حاكما ، بينما لم يحكم الإثنا عشرة الباقية إلا بضعة أشهر فقط.

و ينطبق عليهم نفس التحليل التخبط و الاضطراب و عدم الاستقرار.

هذا شيء قليل من شيء كثير اقترفه الجيش الفرنسي خلال الاحتلال لبلادنا في المراحل الاولى، ، لم تقم فرنسا بمجرد الاعتراف بجرائمها أو الاعتذار على ما اقترفته من تقتيل و تشريد و تخريب و إبادة جماعية.

و هو عكس ما حدث في ألمانيا تجاه إسرائيل و بولندة و ما فعلته الولايات المتحدة مؤخرا مع الشيلي ، عندما اعتذرت رسميا للشعب الشيلي عما اقترفه بنوشي من جرائم ، و هي كانت تؤيده و تدعمه و شتان بين جرائم بنوشي و جرائم الجيش الفرنسي.

هذه صورة قليلة و عينة فقط لما جرى من جراء الاحتلال الفرنسي للجزائر و أهلها و مدنها خلال العشرين سنة الاولى منه ، نطق بها قادة العدو و الساسة و الكتاب و البرلمانيون الفرنسيون بدون خجل من حكم التاريخ و القانون أو حياء من الرأي العام الدولي.

فقد كان أسلوبهم أكثر و حشية من التتار و الوندال و الجرمان في العصور الوسطى ، لأن هذه العناصر الأخيرة (التتار و الوندال) لم تعمل على إبادة السكان من خصومها ، و إنما كانت تعمل على استرقاقهم و بيعهم في مراكز العبيد ، بينما الجيش الفرنسي كان يبيد الأهالي و حتى الجرحى منهم عن بكرة أبيهم.(133)

و عندما احتجت بعض الحكومات الأوروبية على هذه الأعمال اللا إنسانية للجيش الفرنسي في الجزائر ، أجاب رئيس الحكومة الفرنسي آنذاك قائلا : " **إن هذه الأعمال تكون وحشية لو كانت الحرب في أوروبا أما في افريقيا فهذه الحرب بعينها**"(134).

فقد أثرت هذه الإبادة على تعداد السكان و على استقرارهم ، بحيث نقص تعداده ، خلال العشرين سنة الأولى من الاحتلال ، من جراء القتل و التشريد و التهجير و الأمراض الوبائية و من قلة التغذية ، التي سببتها الحروب و وحشيتها.

فقد سبق و أن ذكرنا إحصاء السياسي الجزائري المحنك حمدان خوجة الذي عاصر الفترة المشؤومة ، و ذاق أهوالها بكل دقة و تفصيل و سجلها في

كتابه " **المرآة** " بأن تعداد سكان الجزائر عشية الاحتلال كان عشرة ملايين نسمة.(135)

أما الفرنسيون فيذكرون بأن تعداد سكان الجزائر أثناء الاحتلال لا يتجاوز ثلاث ملايين نسمة (136) ، و هذا الرقم الأخير في الحقيقة لا يتوخى الصواب ، بل بعيد عن واقع الجزائر الشاسعة ، و الفارق بين ما دونه حمدان خوجة و ما دونه الاحتلال هي سبعة ملايين كاملة ، أين ذهب هذا العدد ؟ و ما هو مصيرهم ؟ مع العلم أن حمدان خوجة استعمل قواعد علمية في احصائه للسكان، فهذا الرقم المهول الضخم محير فعلا ، الى أين ذهب؟ هل أتت عليه الأعمال الإجرامية التي سردناها سابقا ، أم أن الأمراض الوبائية حصدت الكثير منهم أم أن الهجرة و الطرد و التشريد أيضا عمل على نقص السكان بهذه الكمية.

فالتقتيل الجماعي ليس غريبا على الجيش الفرنسي ، فقد تكررت هذه الأعمال الوحشية مع الانتفاضات و الثورات الشعبية خلال القرنين 19 و 20 ، و لاسيما منها أيضا أحداث 8 ماي 1945م و ثورة نوفمبر الخالدة راح ضحيتها مليون و نصف المليون في سبع سنوات فقط ، فما بالك في الحرب التي دامت 74 سنة كاملة لاخضاع الجزائر كلها.

و قد دلت الإحصائيات أن عدد شهداء ثورة نوفمبر مليون و نصف المليون كما سبقت الاشارة إليه أي بمعدل 600 شهيد يوميا أي شهيد واحد كل ثلاث دقائق ، جندت فرنسا لها ما يقرب من مليون جندي بمختلف تخصصاتهم و فرقهم و طوابيرهم يقودهم ستون 60 جنرالا و سبعمائة 700

عقيدا بحيث كان عقيدا واحدا ، في جيش التحرير يقابل 116 عقيدا و 10 عشر جنرالات في الجيش الفرنسي.

أما الحديث عن انتفاضة 8 ماي 1945 ، و ما قامت به الادارة الفرنسية و جيشها من مجازر و ابادة ، فاسألوا عنها سكان " جسر العواذر " و " مضائق خراطة " و " شعبة لاخرة "و " كاف البومبا " و " هليوبوليس" و "الكرمات "و " قنطرة بلخير " و منطقة وادي المعيز. (137)

فقد قامت فرنسا بأبشع الجرائم في عهد ظهرت فيه مواثيق الأمم المتحدة ، و جمعيات دولية و أخرى مستقلة غير حكومية تسهر على حماية حقوق الانسان و الدفاع عنه ، فكيف يا ترى كانت الحرب في القرن 19م؟ في وقت لم تكن فيه هذه المنظمات قائمة ! و لهذا فيمكن القول ، بأن ما ذكره حمدان خوجة من تعداد للسكان هو الأقرب الى الصحة و الحقيقة و الصواب ، و أن الظروف التي سار فيها الاحتلال حسب الصور و النصوص و الوثائق التي توصلنا اليها تمثل بحق العدد الرسمي و الحقيقي لقوافل الشهداء منذ دخول فرنسا الى خروجها من الجزائر سنة 1962.(137)

و صفوة القول،فقد كانت المقاومة الجزائرية ، في المدن و القرى و الجبال و في الصحارى،من اعنف المقاومات و أشدها في جبهات القتال،و أصعبها في مسلسل حركات التحرر في العالم،و كانت سجلا حافلا بالأحداث والبطولات النادرة،في تاريخ العمل العسكري التحريري و الحرب الخاطفة ، أدهشت الباحثين المتخصصين في تاريخ الحركات التحريرية ،و ذوي الخبرة في شؤون المقاومة العسكرية و ملاحم الجهاد ،و التي استقطبت اهتمام حبراء التاريخ

العسكري و جذبت انتباه أساطين الحروب،سجلها شهداء الجزائر بدمائهم و أرواحهم خلال الاحتلال الفرنسي.

و قد قال أحد الشعراء عن فضاعة الاحتلال:

أعيني جودا و لا تجمـــدا
أبكيا الجزائر التي سقطت.
لقد دخلـــوا الحصـــون.
فخربوها و نهبوا ما فيها.
لقد حطموا الدكاكين و الاسواق.
و ألقوا البضائع في مهب الريـــاح.
لقد ملؤوا الكؤوس انتصارهم مترعة و أداروها بينهم.
فتهافت عليهم القوم السفلة.
شرب اليهودي حتى سكر.
فاستخف بنـــــا ازدراءا.
لقد اقتلعـــوا اشجـــارك.
و شتتـــــوا سكـــانك.
لقد ذهب الرجال الشجعان و انعزلوا .
و غادروا عبر البحر و عبر البر.
سيفرج الله همومك يومـــــا.
فهو الرحمان و هو رب العالمين.

الهــــــوامش :

(1) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية المكتبة الانجلو مصرية القاهرة 1971 ج1 ص5 .

(2) م فرنسوا مسيرو : سانت آرنو أو الشريف الضائع ، دار القصبة الجزائر 2005 ص 76

انظر ايضا : صلاح العقاد : المغرب العربي مكتبة الانجلو مصرية 1969 ص87 و ما بعدها

(2) عفرون محرز مذكران وراء القبور ج1ص17و18.

(3) مسبيرو : المرجع السابق ص76.

(4) صلاح العقاد : المرجع السابق ص88.

(5) صلاح العقاد: المرجع السابق ص90.

(6) نفسه ص91.

(7) صلاح العقاد : المرجع السابق 93-ماسبيرو: المرجع السابق ص77.

(8) مسبيرو ص78.

(8م) محمد الشريف ساحلي : تلخيص تاريخ من الاستعمار ص 68.

(9) نفسه ص78.

(10) نفسه ص 79 –صلاح العقاد : المرجع السابق ص99- عفرون محرز : المرجع السابق ج1 ص44.

(11) مسبيرو: المرجع السابق ص 79.

(12) نفسه ص81-82.

(13) نفسه ص 81-82-عملت فرنسا فيما بعد على خلق فرق من الأهالي و من الأجانب لإستكمال احتلالها للجزائر تمثلت في إنشاء فرقة "الزواويين" Les zouaves و السبايس Les spolis و القناصة Les terailleurs و الافارقة ، و اللفيف الاجنبي و الزفير و الاحتفاظ بفرقة الكراغلة.

(14) مسبيرو : المرجع السابق ص94.

(15) نفسه ص84.

(16) نفسه ص89.

(17) نفسه ص89.

(18) مسبيرو : المرجع السابق ص89.

(19) اوليفيي لوكور غرانميزن : الاستعمار الابادة ، تأملات في الحرب الدولة الاستعمارية دار الكتاب الجزائر 2007 ص 19 -156.

(20) اوليفيي : المرجع السابق ص 110.

(21) هو النائب اوليكسي دي توكفيل ، كان عضوا في اكاديمية الاخلاق و العلوم السياسية ، ثم وزيرا للخارجية في الجمهورية الثانية ، و كان كاتبا مشهورا ، له عده مؤلفات من انصار الاحتلال و حرب الابادة و شغل منصبا في البرلمان.

(22) اوليفيي : المرجع السابق ص6-12.
(23) اوليفيي : المرجع السابق ص 12-14.
(24) نفسه ص9 جاء الجنرالات و الكولونيلات الى بلادنا على رأس الجيش الفرنسي المهزوم في روسيا و في بريزينا و في واترلو ،عفرون محرز المرجع السابق ص 28.
(25) نفسه ص 16.
(26) عبد العزيز فيلالي : مدينة قسنطينة ص 196.
(27) انظر في هذا العدد : عمر سعد الله : القانون الدولي الانساني و الاحتلال الفرنسي ، دار هومة الجزائر 2007 ص143 – عبد العزيز فيلالي : مدينة قسنطينة ص 196.
(28) نفسه ص 226 هـ/1.
(29) عبد العزيز فيلالي : المرجع السابق ص 196.
(30) من جرائم الاستعمار الفرنسي ، ص212 . جمال قنان : نصوص سياسية في القرن19 ، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 2007 ص 78-80 .
(31) جمال قنان : المرجع السابق ص 78-80 .
(32) صلاح العقاد : المغرب العربي ص127.
(33) برنشفيك : تاريخ افريقية في العهد الحفصي ، ج1 ص 80-90.
(34) اوليفيي : المرجع السابق ، ص 110.
(35) كوليت و فرنسيس جونسون : الجزائر الثائرة القاهرة 1957 ص41.
(36) حمدان خوجة : المرآة ص 250-251.
(37) بن خليف مالك : الفكر السياسي عند عبد الحميد بن باديس رسالة ماجستير 2008 ص24.
(38) نفسه ص24 مذكرات خير الدين ، ص 84.
(39) نفسه ص 23.
(40) حمدان خوجة المرآة ص 250-251.
(41) بن خليفة مالك : المرجع السابق ص 25.
(42) اوليفيي : المرجع السابق ص 20/هـ1.
(43) نفسه ص 20.
(44) اوليفيي : ص 19.
(45) اوليفيي : المرجع السابق ، ص 111.
(46) نفسه ص 111.
(47) نفسه ص 111-112.
(48) نفسه ص 111-112.
(49) نفسه ص 173.
(50) نفسه ص 112.

(51) نفسه ص 144.

(52) نفسه ص 144.

(53) نفسه ص 146.

(54) اوليفيي : المرجع السابق ، ص 152-153.

(55) نفسه ص153.

(56) بشير بومعزة : الاستعمار جريمة ضد الانسانية ، جريمة حرب ، المصادر ع3 سنة 2000ص12.

(57) نفسه ص 13.

(58) بشير بومعزة : المرجع السابق ص 13.

(59) نفسه ص 13.

(60) اوليفيي : المرجع السابق ص 238.

(60م) محمد الشريف ساحلي المرجع السابق ص78.

(61) صلاح الدين العقاد : المغرب العربي ، ص 127.

(62) نفسه ، ص 127.

(63) جرائم الاستعمار المصادر ، ص 226.

(64) جمال قنان : المرجع السابق ص 78.

(65) حمدان خوجة : المرجع السابق ، ص43.

(66) حمدان خوجة : المرجع السابق ، ص271.

(67) نفسه ص 270-271.

(68) عمر سعد الله : المرجع السابق ص 140.

(69) نفسه ص 141.

(70) نفسه ص 141.

(71) نفسه ص 141.

(72) شارل روبير آجرون : تاريخ الجزائر المعاصرة ، ص 32.

(73) نفسه ص 32-34.

(74) نفسه ص 35.

(75) نفسه ص 35.

(76) شارل روبير آجرون : المرجع السابق ص 36.

(77) اوليفيي : المرجع السابق ص 174.

(78) نفسه ص 185/هـ1

(78م) محمد الشريف ساحلي المرجع السابق ص77.

(79) عمر سعد الله : المرجع السابق ، ص 141.

(80) أوليفيي : المرجع السابق ، ص 228.

(81) أوليفيي : المرجع السابق ، ص 228.
(82) نفسه ص 229.
(83) جرائم الاستعمار : المصادر ص227.
(84) نفسه ص 227.
(85) نفسه ص 228.
(86) أوليفيي : المرجع السابق ، ص 228.
(87) أوليفيي : المرجع السابق ، ص 228
(88) نفسه ص 228.
(89) فرنسوا مسبيرو : المرجع السابق ، ص 149.
(90) فرنسوا مسبيرو : المرجع السابق ، ص 150.
(91) نفسه ص 150.
(92) نفسه ص 150.
(93) نفسه ص 150.
(94) نفسه ص 152.
(95) فرنسوا مسبيرو : المرجع السابق ، ص 332.
(96) نفسه ص 333.
(97) نفسه ص 333.
(98) نفسه ص 333.
(99) فرنسوا مسبيرو : المرجع السابق ، ص334.
(100) نفسه ص 334.
(101) نفسه ص 334 ، تحفظت عائلة الجنرال ' سانت آرنو ' على بعض الجمل و المفردات التي تدين القائد و تشوه سمعته ، و حدفتها من رسائله اثناء نشرها ، مثل الاحتفاظ بجماجم القتلى و آذانهم.
(102) نفسه ص 334.
(103) جرائم الاستعمار ، المصادر ص 228- عبد العزيز فيلالي : مدينة قسنطينة ص 199.
(104) نفسه ص 228.
(105) اوليفيي : المرجع السابق ، ص 174 هـ/1 ، لم يعاقب بيليسييه (1794-1864) ، بل ترقى الى مارشال ثم تقلد نائب رئيس مجلس الشيوخ ، و سفيرا في بريطانيا ، ثم عاد الى الجزائر كحاكم عام سنة 1860 ، و قد علق احد المثقفين الفرنسيين ، بأن المجازر في الجزائر لا تضر مرتكبيها بل ترقيهم الى مناصب عليا ، اوليفيي ص 175/هـ1.
(106) نفسه ص 176.
(107) نفسه ص 176.
(108) جرائم الاستعمار ، ص 228- اوليفيي ص 178.

(109) أوليفيي : المرجع السابق ، ص 180-181.
(110) نفس ص 186 هـ/1.
(111) عمر سعد الله ، المرجع السابق ص 142.
(112) نفسه ص 142.
(113) أوليفيي : المرجع السابق ، ص 192-193.
(114) نفسه ص 229.
(115) جرائم الاستعمار ، المصادر ص 229 – فرنسوا مسبيرو : المرجع السابق ، ص 308.يحي بوعزيز : ثورات القرن 19 ص97.
(116) فرنسوا مسبيرو : المرجع السابق ، ص 334.
(117) أوليفيي : المرجع السابق ، ص229.
(118) أوليفيي : المرجع السابق ، ص 308.
(119) أوليفيي : المرجع السابق ، ص 229 هـ/1 كان بوديكور (1815-1855) صحفيا و كاتبا استقر في الجزائر سنة 1845.
(120) نفسه ص 188.
(121) نفسه ص 213-214 .
(122) أوليفيي : ص214-215 هـ/2 يقول 'بياس' في الدليل السياحي ، انه لم يبق من 166 صرح ديني في الجزائر العاصمة الا 21 فقط في يد الجزائريين ، و استولت فرنسا على 145 الباقية نفسه ص 213 هـ2 ، و كان الفرنسيون ينبشون المقابر بحثا على الرفاة لبيعها للأنها تستخدم في تكرير السكر في فرنسا نفسه ، ص 215 هـ/2.
(123) أوليفيي : المرجع السابق ، ص 6.
(124) حمدان خوجة : المرآة ، ص 40-60.
(125) نفسه ص 40-60 .
(126) جرائم الاستعمار ، ص 226.
(127) عمر سعد الله : المرجع السابق ص 145.
(128) نفسه ص 145.
(129) روبير اجرون : المرجع السابق ، ص 41-42.
(130) نفسه ص 41-42.
(131) انظر عمر سعد الله : المرجع السابق ، ص 135-136.
(132) نفسه ص 135-136.
(133) عبد العزيز فيلالي : مدينة قسنطينة ص 200.
(134) نفسه ص 200 .
(135) حمدان خوجة المرآة ص 40-60 .

(136) صلاح العقاد : المغرب العربي مكتبة الانجلو مصرية القاهرة 1969 ص 126.
(137) عبد العزيز فيلالي : مدينة قسنطينة ص F.202

الاحتلال الفرنسي لمدينة قسنطينة

تمهيـــد :

تعد مدينة قسنطينة من المدن الجزائرية الهامة ، العريقة بتاريخها و حضارتها و بتراثها العريق ، منذ فجر التاريخ .فقد عرفت الاستقرار البشري منذ ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد .زاد في أهميتها موقعها الذي يتوسط إقليم الشرق الجزائري ، في محور تتلاقى فيه شبكة الطرق التجارية المختلفة الاتجاهات ، و هو احد الأقاليم الاقتصادية و السكانية الرئيسية الهامة في الجزائر ، تتربع على كتلة صخرية بالعدوة الغربية لوادي الرمال ، و يحيط بها أخدود الوادي العميق ، و هو الشيء الذي زاد في حصانتها و أهميتها كقلعة شامخة ، تحف حولها العوائق و المنحدرات الشديدة ، من أغلب الجهات ، اختارها النوميديون ، لتكون عاصمة المملكة النوميدية في القرن الرابع قبل الميلاد ، بسبب موقعها و حصانتها و سهولة الدفاع عنها ، و وفرة المياه حولها ، و الأراضي الخصبة المحيطة بها ، فكانت هذه المقاطعة جميلة و غنية بمواردها الفلاحية و التجارية.

خضعت للاحتلال الروماني و الوندالي و البيزنطي ، ما بين القرنين الثاني و السابع الميلاديين ، و عرفت المدينة بثلاثة اسماء هي " **كرثن**" و "**سيرتا**" و "**قسطنطينة** ".

دخلت دائرة الاسلام في منتصف القرن الاول الهجري الموافق للنصف الثاني من القرن السابع الميلادي ، أي في عهد أبي المهاجر دينار ، الذي نقل عاصمة

ولايته الى مدينة ميلة سنة 59هـ/677 م ، التي انطلق منها لفتح مدينتي "**تيديس**" و " **قسنطينة** "، و بفضل سكان هذه المدن الذين استجابوا للدعوة الاسلامية ، وجه أبو المهاجر البعثات و السرايا و الحملات الى بلاد المغرب الاوسط (الجزائر) ، فأوصلوا الاسلام الى مدينة تلمسان بالغرب الجزائري .

تعاقب على حكم مدينة قسنطينة في العهد الاسلامي الأغالبة و الفاطميون و الزيريون و الحماديون و الموحدون و الحفصيون ، و صارت عاصمة بايلك الشرق في العهد العثماني في الجزائر خلال القرن 16م.

فكانت مدينة قسنطينة الى غاية الاحتلال من المدن الهامة الداخلية و مركز استقطاب،و همزة وصل بين الأرياف و المدن و ملتقى طرق القوافل بل كانت تجارتها نافقة ، و كانت سوقا لتصدير المنتجات الجزائرية الى تونس، و استيراد الفرش و الأقمشة من الشرق الأوسط، وكانت فئة القرويين تتعايش بانسجام مع فئة المدينة المتحضرين،و كان تعداد سكانها آنذاك أي في سنة 1837 نحو ثلاثين ألف نسمة.[1]

منهم عدد كبير من البيوتات،و من السكان ذوي الاصول العريقة ، الميسورة و طائفة من التجار الاغنياء من العرب و من اليهود [2].

وصفها العقيد "كانروبير" بقوله :"**مدينة جاثمة مثل عش النسر فوق صخور سوداء ، كانت تبدو لنا رمادية اللون، ديارها متراصة و سطوحها منخفضة و في جدرانها كوى لرمي القذائف، كان يفصل بينها أشجار السرو ، كانت المآذن البيضاء و بعض البنايات الحجرية الواسعة ، تبدو بقعا ناصعة**

وسط ذلك اللون الداكن،في بوابتي المدينة رايتان حمراوتان ، و كانت الأسوار مكتظة بالمحاربين و بالنساء و الأطفال"[3].

و ذكرها قائد المقاطعة "بودو" في تقرير بعث به الى الحكومة الفرنسية بأن مدينة قسنطينة كانت تتميز بالثقافة و العلم ، بحيث كانت تحتوي في سنة 1837 أي قبل الاحتلال،على الكثير من المدارس الخاصة بالتعليم الابتدائي و الثانوي و العالي،و كان يؤمها ما بين 600 الى 700 طالب يدرسون العلوم النقلية و الدينية و الشرعية و العلوم العقلية ، يتلقون فيها دروسا في الرياضيات و في علم الفلك و البلاغة و الفلسفة في 7 معاهد بالمدينة ، و كان عدد المدارس فيها يزيد عن 90 مدرسة ابتدائية ، منتشرة عبر أحياء المدينة ، يزاول الدراسة فيها ما بين 1300 الى 1400 تلميذ بالإضافة الى 16 زاوية و 70 مسجدا للتدريس و التحصيل و اقامة الصلاة و حفظ القرآن و مكتبة بمدرسة الشيخ لفكون تحتوي على 4000 مجلد في مختلف العلوم و الفنون. و هي مؤسسات تربوية تفوق ما كان موجودا بفرنسا ، و أن التعليم فيها كان حرا و خاصا ، و جزءا أساسيا من حياة الناس، يكاد يكون مجانيا ، قبل أن تصدر حكومة فرنسا قانون "غيرو" ، و تقوم بتشريعه لأبنائها سنة 1873 و المتعلق بإجبارية التعليم في فرنسا ، و أن الأمية في مدينة قسنطينة هي الأخرى تكاد تخلو من سكانها خاصة و من سكان الجزائر عامة [4].

تقلص عدد الطلبة في الدراسات العليا الى ستين طالبا فقط بعد الاحتلال و نقص عدد المدارس الابتدائية الى ثلاثين مدرسة ، و عدد التلاميذ الى 350 تلميذا **"فكان الزوار الذين يزورون مدينة قسنطينة في هذه الفترة يتأسفون لجفاف**

منظرها" حسب تعبير القائد بودو [5]. لقد وضع الاحتلال حدا لتلك الفترة الزاهرة من الرخاء و التعليم، فأجبر قسما كبيرا من الميسورين و العلماء و أصحاب الجاه و المال على مغادرة المدينة ، فاضمحلت التجارة و اضمحل التعليم و صارت المدينة يخيم عليها البؤس و الظلم خلال الاستيطان الاوروبي[6] ، اذن فقد كانت هذه هي الحضارة و المدنية التي جاءت بها فرنسا، لتشع به على السكان ، بل جاءت بالخراب و الذمار و الإبادة و الجهل و الفقر و بثته في أوساط المجتمع الجزائري.

أحمد باي و مقاومة الاحتلال:

تولى احمد باي بايلك الشرق الجزائري ما بين سنتي 1826 و1837 م و كان يتبع داي دار السلطان في الجزائر ، اداريا و سياسيا و مذهبيا ، يقوم بزيارة هذا الاخير مرة كل ثلاثة سنوات ، زيارة اجبارية في الحالات العادية ، يقدم خلالها للداي " الباشا" ، الولاء و الهدايا و الدنوش "اللازمة" ، المعهود تقديمها في وقتها المناسب ، و كان برفقته نحو 400 فارس لحمايته و حماية الوفد المرافق له ، من كبار شيوخ المدينة و أعيانها و قادة بايلك الشرق المحليين.[7]

تزامنت زيارة الحاج احمد باي في هذه المرة (جوان 1830)، مع استعدادات دار السلطان، لمواجهة الحملة الفرنسية ، التي كان الداي حسين على علم بها أخبره جواسيسه المنتشرين في مالطة و جبل طارق و في فرنسا ذاتها . و على الرغم من ذلك، فقد تباطأ في تحضيره و استنفاره لقواته،فلم يستعد لها كل الاستعداد و لم يسرع في تعبئة امكانيات الجزائر المادية و البشرية آنذاك. في

الوقت المناسب، رغم التهديدات الفرنسية المتكررة و حصار مدينة الجزائر منذ سنوات بعدد من سفنها ، فقد اكتفى كما تشير بعض المصادر الى مراسلة القبائل و اعلامهم بالنوايا العدوانية ، التي تضمرها الدولة الفرنسية للجزائر ، و هو العامل الذي جعل الكثير منهم يتأخر في تلبية النداء ، و منهم من جاء بعد فوات الأوان.(8)

و قد شارك الحاج احمد باي بقواته القليلة التي جاءت معه لحمايته و انظم الى هيئة الاركان التي شكلها الداي حسين ، لوضع خطة عسكرية دفاعية لمواجهة العدوان ، برئاسة صهره "ابراهيم آغا " الذي – فيما يبدو– كان يجهل التكتيك العسكري و فن القيادة ، و لم يكن قائدا كفئا مميزا حسب رأي حمدان خوجة و الحاج أحمد باي.(9) بدلا من "يحي آغا " القائد الخبير بالشؤون العسكرية و بفنون الحرب و القتال.

فقد تولى يحي هذا المنصب مدة 12 سنة في عهد حسين باشا أدار جيوش الجزائر خلالها بجدارة و استحقاق توجت حروبه بالنصر. فكان من اشهر القادة العسكريين الجزائريين الذين تولوا هذا المنصب ، عزله الداي حسين من منصبه في هذه الفترة الحرجة ، ثم أعدمه.(10)

اجتمعت هيئة الأركان بقيادة "ابراهيم آغا " في مكان قريب من سيدي فرج ، حيث تنزل الحملة الفرنسية ، و وضع هذا الاخير خطة عسكرية دفاعية لمواجهة الحملة ، لم يكن الحاج أحمد باي راضيا عن نجاعتها لأنها في رأيه تفتقر الى الدقة و التكتيك الحربي الدفاعي ، و اقترح بذلها خطة أخرى توضع العدو بين فكي كماشة ، لكن ابراهيم آغا رفضها و أصر على خطته(11).

و لما نزل الفرنسيون في سيدي فرج الى البر ، تراجعت قوات الداي الى سطاوالي ، بعد أن خسرت الكثير من الجنود و المدافع و المواقع و الحصون ثم الى برج مولاي حسان ، و عند وصوله الى اسوار مدينة الجزائر استسلم الداي حسين للجنرال دي بورمون يوم 04 جويلية 1830 م،فدخل هذا الأخير المدينة منتصرا يوم 05 جويلية 1830م،بعد أن تعهد في وثيقة بينه و بين الداي حسين، بالمحافظة على أرواح السكان و ممتلكاتهم و دياناتهم و مقدساتهم،و على الأملاك العامة و الخاصة،و الالتزام بالاتفاق المبرم بين الطرفين التزاما كاملا [12] إلا أن هذه المعاهدة ضرب بها العدو عرض الحائط.

أما الحاج أحمد باي، فقد تراجع بمن معه من الفرسان الى وادي القليعة ثم عين الرباط (مصطفى باشا) فجنان الباشا ، حيث لحق به الفارين من سكان مدينة الجزائر ، فانظم إليه ما يزيد عن 1600 نسمة،عشية الاحتلال، فانسحب بهم الى قنطرة الحراش ، ثم واصل طريقه الى مدينة قسنطينة ، و في هذه الأثناء اتصل القائد العام الفرنسي دي بورمون بالحاج أحمد باي،يعرض عليه الاستسلام و دفع اللازمة (الدنوش)، مقابل بقائه على بايلك الشرق.[13]

و عندما وصل الحاج احمد باي الى ضواحي قسنطينة الى الحامة،بعد مسيرة منهكة دامت أكثر من 22 يوما مع أكثر من ألفين شخص،وجد مؤامرة أحيكت ضده من قبل الأتراك داخل المدينة ، بحيث عينوا مكانه القائد سليمان بايا على بايلك الشرق،و خرجوا لمواجهته خارج المدينة، و بمجرد خروجهم ، ثار عليهم السكان و أعيان المدينة و فقهائها و طلابها،تحت قيادة " ابن عيسى " فقتلوا سليمان ، و عاد أحمد باي الى منصبه.[14]

تواصلت مراسلات قادة الاحتلال ، الى الحاج أحمد باي يعرضون عليه الاعتراف بالحكم الفرنسي في الجزائر ، و دفع الضرائب ، و الاتاوات ، مقابل بقائه في منصبه، فقد كتب إليه القائد كلوزيل(ت 1842) يدعوه الى الاعتراف بالسيادة الفرنسية،مقابل بقائه حاكما لقسنطينة،و إتحافه بقبطان الشرف باسم ملك فرنسا. فكان الحاج أحمد باي و ديوانه المكون من القادة و أعيان المدينة و رؤساء القبائل يرفضون ما تقدم به القادة الفرنسيون.(15)

و نتيجة لهذا الرفض حاول كلوزيل ، ان يتخطى الحاج أحمد باي بابرام معاهدة مع باي تونس ، يكون هذا الاخير بمقتضاها حاكما على بايلك الشرق الجزائري،و بالتالي تصبح قسنطينة تابعة لتونس و فرنسا، و عينوا مكانه "مصطفى شقمق ، و كالعادة قوبل هذا التعيين بالرفض من قبل الحاج باي و ديوانه،و كتبوا لداي تونس يخبرونه بالرفض كذلك ، و طلب أعيان المدينة من أحمد باي بأن يتلقب "بالباشا" و أن يضرب النقود باسمه ، فاتبع نصائح الديوان و الأعيان ، و عيّن لذلك " ابن عيسى " خزناجيا و أمينا للسكة التي ضربت(16).فأصبح يلقب بالداي احمد حسب وثيقة ابن عيسى و كان هذا الاخير الشخص المنفذ للسياسة الجديدة لأحمد باي منذ سنة 1830 فقد قام بتطهير الجيش من الانكشارية ، و تطهير جهاز البايلك من العناصر التقليدية المحلية و لاسيما بعض البيوت، و عين موظفين جدد من عصبة القبائل فكان ابن عيسى منفذ هذه الاجراءات للثقة الكبيرة التي منحها إياه احمد باي(16م) ثم كتب أعيان المدينة الى الصدر الأعظم السلطان العثماني ، يطلبون منه منح الحاج أحمد باي لقب الباشا و تثبيته حاكما على بايلك الشرق.

ظل الحاج أحمد باي يدير شؤون البايلك ، و يقاوم تهديدات باي تونس و تهديدات فرنسا المتكررة ، و لاسيما بعد أن احتلوا مدينة عنابة سنة1832م ، و يتصدى لبعض المناوئين و المنافسين له مثل ابراهيم الباي الذي كان يحكم قسنطينة سابقا ، بمساعدة باي التيطري و بتشجيع و تحريض منه . و شيخ العرب السابق المدعو فرحات بن سعيد و المملوك يوسف اليهودي المسلم المرتد،الذي عينه الفرنسيون على رأس فرسان من أهل البلد ، و الذي سيلعب دورا في المنطقة.(17م)

تمكن ابراهيم الباي من التحصن في قصبة مدينة عنابة ، فأرسل اليه احمد باي بسرية يقودها " ابن عيسى" للقضاء عليه ، فحاصره هذا الاخير مدة زادت عن 6 اشهر حتى اخرجه من عنابة و بمجرد مغادرته ، استولى الجيش الفرنسي على المدينة بطريقة الغدر و كان في امكان " ابن عيسى " سحقهم الا ان احمد باي رفض ذلك و قال له :" **لا تذهب الى توريطي ، في مشاكل مع الفرنسيين،لقد احتل هؤلاء مدينة الجزائر،و أن أي خطأ قد يوقعني مجددا في صراع معهم**."(17)فعاد الى قسنطينة تاركا مدينة عنابة في يد العدو و الظاهر أن احمد باي كان يخاف من منافسيه اكثر من خوفه من الفرنسيين و كان ابراهيم باي قد تمكن من القضاء على هودر Houder و مساعدة بيقو Bigot و الاستلاء على قصبة عنابة في اكتوبر سنة 1831م ثم عاد اليها الفرنسيون نهائيا في اواخر شهر مارس 1832 على يد دارماندي و يوسف(17م).

و كان الاستيلاء على مدينة عنابة ، قد أحدث القطيعة بين الحاج احمد باي و بين الفرنسيين ، و أصبح الباي منذ ذلك الوقت يناوش الفرنسيين و

يحاربهم ، و يخلق لهم العديد من العراقيل حتى لا يتقدموا الى مناطق حكمه، و يقوم بضرب مشاريعهم التوسعية في المنطقة .[18] و كتب الى السلطان العثماني ليمده بالجيوش و بالسلاح ، حتى يتسنى له الدفاع عن البايلك.[18]

و في نفس الوقت كان يستقبل مبعوث القائد العام الفرنسي الجديد في الجزائر و هو" الدوق دورفيكو " ، الذي بعث اليه برسالة أوصلها حمدان خوجة ، يدعوه فيها الى الاستسلام ، و دفع ثلاثة ملايين فرنك كتعويض للحرب و الحملات التي يشنها عليهم ، و دفع اللازمة السنوية [19] مقابل بقائه في الحكم ، فرفض الحاج أحمد باي و قادة المدينة و أعيانها و شيوخ المقاطعة ، و ردوا على القائد الفرنسي " الدوق دورفيكو " جوابا ضمنوه جميع معاني الرفض للاحتلال الفرنسي.[20]

لم يطل الوقت حتى عاد حمدان خوجة من جديد الى مدينة قسنطينة يحمل عرضا جديدا أكثر ليونة من الأول ، فرفض ايضا بالرغم من نصائح حمدان خوجة،لان الفرنسيين كانوا يستهدفون الحاج احمد باي وسلطته على الاقليم ، و لهذا الأمر جعل سكان الاقليم يتمسكون به و يلتفون حوله و يرتبطون معه ارتباطا مصيريا وثيقا.[21]

و كان أعيان قسنطينة ، قد كتبوا عريضة الى البرلمان الانجليزي في شهر جويلية سنة 1833 أي قبل احتلال المدينة بأربع سنوات،يوضحون فيها الوضعية المزرية التي وصل إليها سكان الجزائر من جراء عدوان الاحتلال و الرسالة في حد ذاتها توضح مدى النضج السياسي لهؤلاء الأعيان،و تبين الثقافة الواسعة التي يتمتعون بها،و تدل على أنهم كانوا مطلعين على ما يدور في بلادهم من أحداث

و عدوان ، و جرائم ضد الانسانية اقترفها الجيش الفرنسي في حق الشعب الجزائري في وطنه و على أرضه.و تعرفنا أيضا بأن أعيان قسنطينة كانوا يعرفون ما يحدث في العالم و ما هي الدول التي كانت تحافظ على حقوق الانسان،و تقف ضد الجرائم الانسانية .

و لهذا توجهوا الى البرلمان الانجليزي،لأنهم كانوا يرون بأن مهامه هو السهر على احترام حقوق الانسان،و المصلحة الانسانية و تدعيم الرابطة الأخوية بين البشر، و لاسيما و أن البريطانيين، قد أرسلوا مبلغ مائة مليون دورو اسباني الى الهند من أجل تحرير العبيد بها احتراما و خدمة لحقوق الانسان.

و قد دعا أعيان قسنطينة للبرلمان الانجليزي بالنجاح في مهمته النبيلة الانسانية ، و شكروه على هذه المبادرة الإنسانية الطيبة و وضحوا له بأنه لا يجب أن يكون هدف الدول ، هو إراقة الدماء ضد الشعوب المستضعفة ، كما تفعل الدولة الفرنسية في الجزائر،و لهذا فقد التمسوا منه بأن يبادر بالدفاع عن أهل الجزائر و حقوقه الانسانية،و أن يعمل على توقيف سفك الدماء الجزائرية البريئة.

و وضحوا للبرلمان بأن الفرنسيين ، لم يدخلوا مدينة الجزائر إلا بعد إبرام معاهدة و وقعوا عليها ، و كان القنصل الانجليزي وسيطا لذلك و شاهد على هذه المعاهدة.

لكن الفرنسيين لم يحترموا بنود المعاهدة و ضربوا بها عرض الحائط، و قاموا بجرائم بشعة في حق الانسانية ، فكانت تصرفاتهم مناقضة لهذه المعاهدة

فقاموا بنفي الكثير من الأهالي بدون سبب ، و فصلوا الزوج عن زوجته و أولاده و الاستيلاء على أملاكهم ، و عملوا على استبدال الدين و الاستيلاء على الأوقاف التي أوقفها المسلمون على الفقراء ، ثم وضعوا أيديهم على المساجد ، و اتخذوا من بعضها مساكن و البعض الآخر أجروها للتجار، و قاموا بهدم المنازل و قتلوا أناسا بدون سبب و سجنوا آخرين ، و انتهكوا حرمات المقابر و افقروا كل سكان مدينة الجزائر.[22]

أما أهل الأرياف فقد أوقعوا فيهم مذابح ، بالرغم من كونهم في حالة سلم معهم.[23] فقتلوا بناتهم و نسائهم بدون رحمة و لا شفقة و هو " **عمل شنيع لم يسبق أن سجل في تاريخ الطغاة نظيرا له** " حسب تعبير أعيان قسنطينة.[23]

و أضاف أعيان المدينة للبرلمان الانجليزي ، بأنهم أي الفرنسيين استولوا عن طريق الغدر و الخيانة على قصبة مدينة عنابة و استقروا بها ، و استرسلوا في عريضتهم بأن قسنطينة و أريافها خاضعة في هذه الآونة الى السلطة العثمانية، و يضيف أعيان المدينة بقولهم:"**سوف نحارب عدونا الغادر (الفرنسيون) بكل ما نملك من قوة و لن نثقوا في عهودهم ، و لن نستطيعوا العيش معهم في سلام و وئام و لهذا فواجبنا هو محاربتهم الى آخر رجل في البلد**".[24]

كما بينوا للبرلمان الانجليزي بأن اخوانهم من سكان الغرب الجزائري قد أصبحوا بدون قائد ، بسبب الاحتلال الفرنسي ، و أن حالتهم مضطربة في هذه السنة أي سنة 1833م ، و سلطة حكومة الجزائر لا تصل إليهم بعد سقوط وهران في يد العدو ، و هم بذلك لا يستطيعون السماح للحاج احمد باي بأن

يهتم بهم أو يذهب إليهم لأن الفرنسيين يتربصون بقسنطينة و أهلها من مدينة عنابة ، و يقومون بمهاجمة بعض الأقاليم فيها.[25]

و يضيف أعيان قسنطينة في عارضتهم للبرلمان الانجليزي ، بأنهم يدركون تمام الإدراك هدف العدو الفرنسي في الجزائر ، هو القضاء على الحكم الإسلامي و إراقة الدماء ، و تبديل الدين ، و الانتقام من الأحياء و الأموات ، كما كانوا يعرفون إخلاص الانجليز و نيتهم و صداقتهم و احترامهم للمعاهدات ، و عادات و تقاليد و قوانين المجتمعات و ديانتهم و حقوق الانسان[26].

فهذه المعطيات و الاعتبارات دفعت بأعيان قسنطينة أن يسرعوا في الكتابة الى البرلمان الانجليزي ، و يذكرونه بالوحشية التي يقوم بها الجيش الفرنسي ضد أهل البلد و في مناطق عديدة منه ، قبل أن يصلوا الى مدينة قسنطينة ، و يناشدونه بالعمل على تجنيب الجزائر مزيدا من الدماء و الخراب و الإبادة الجماعية،و يؤكدون للبرلمان بان فرنسا ليس لها الحق في هذه الأرض،التي هي موروث للشعب الجزائري،منذ آلاف السنين،و أهلها أحرار كيف يتطاولون لضمها الى تونس أو يستوطنونها.[27]

فقد زعم الفرنسيون أنهم جاءوا بغرض الحداثة و اقامة العدل و القضاء على الهمجية و البربرية،غير أن أعمالهم و سلوكاتهم في الميدان تبين عكس ذلك،فالظلم و الهمجية و البربرية،التي يقترفونها يوميا في الجزائر،" **أشد قسوة و شناعة ، من كل المظالم و الهمجية التي عرفت حتى الآن فليس هناك مثال للجور يمكن مقارنته بالطغيان الفرنسي،فهو يتجاوز خيال كل الطغاة منذ أن خلق الله آدم الى يومنا هذا** " [28]،حسب تعبير أعيان قسنطينة.

فكان لهذه العريضة صدى في البرلمان الانجليزي،و لاسيما ما جاء فيها من القتل الجماعي و تهجير السكان،و تذمير القرى و المداشر و الأشجار المثمرة و الزياتين و النخيل و الحيوان و المحاصيل الزراعية،و هي مصادر قوت الأهالي، غير أن الانجليز تأثروا و لكنهم لم يحركوا ساكنا [29]،ولم يتجرأوا على التصدي،لأن المصالح المشتركة تحيّدهم عن ذلك .

رصد الحاج أحمد باي عيون و جواسيس و حراس منبثين في مدينة عنابة ، ينقلون له أخبارها ، و ما يدور فيها من استعدادات الجيش الفرنسي ، و تمكن من خلال أحد رجاله الذين بعثهم سرا الى عنابة من معرفة وقت خروج الجيش الفرنسي لمداهمة و حصار مدينة قسنطينة .أخبره بها المملوك يوسف اليهودي ، الذي سيخرج معهم بفرقة عسكرية و سينصب بايا على بايلك الشرق[29]. عند ذلك أدرك الحاج أحمد باي ما يبيّته له العدو ، و استعد للدفاع عن المدينة و أهلها ، فشكها بالسلاح و الرجال ، و زرع المدفعية على أسوارها و أسوار القصبة ، و كان عددها يزيد عن ثلاثين مدفعا[30]. فضلا عن مدافع أخرى عين لها رجال متخصصون في استعمالها من أهل قسنطينة و من الأتراك و من الرجال القادمين معه من الجزائر بعد سقوطها.[31]

و قام باستدعاء الجيوش من مختلف أنحاء البايلك،و من القبائل المختلفة فلم يتخلف أحد منهم عن النجدة و المساهمة في المجهود الحربي ، فأقام حامية عسكرية في الداخل تتكون من 1400 جندي تحت قيادة " ابن عيسى " و قائد الدار علي بن محمد البجاوي ، و نحو 1000 ألف من المتطوعين المكلفين بحماية المدينة و حراستها.[32]

و أقام معسكرا له يقوده شخصيا يتكون من 1500 من المشاة و 5000 من الفرسان،خارج المدينة لعرقلة الجيوش الفرنسية و التصدي لهم في الجبال و الشعاب على طول الطريق الرابط ما بين عنابة و قسنطينة ثم يجعلهم بين فكي كماشة عندما يصلون أسوار المدينة،و هي الخطة التي اقترحها على ابراهيم آغا في الجزائر، و رفضها هذا الأخير ، فشن غارات عديدة على المعسكر الفرنسي بالدرعان دامت يومين كاملين يوم 24 و 25 من شهر أكتوبر سنة 1836.[33]

و كان الماريشال " كلوزيل " يحلم بتحقيق الاستيلاء على مدينة قسنطينة عاصمة بايلك الشرق،لأن الحاج أحمد باي لم يعد يفيد الدولة الفرنسية، و كان يعتقد و هو واثق من ذلك،بأن الرعية في المدينة ، يكنّون عداوة كبيرة للباي أحمد،بسبب معاملته الفضة لهم،و في جمع الضرائب و الاتاوات.و بالتالي سوف يستقبلونه بالترحيب و بالورود ، و يثورون على حاكمهم . و بذلك يسهل عليه دخول المدينة و استبدال الحاج أحمد باي بباي آخر هو المملوك يوسف اليهودي (yusuf)،و اسمه الحقيقي جوزيف فانتيني josof vantini ، نشأ و ترعرع في مدينة تونس ، و كان مملوكا مفضلا لدى باي تونس ، فكان مجيئه للمشاركة في الاحتلال و انضمامه للجيش الفرنسي في الوقت المناسب، و منذ ذلك الوقت أصبح يحمل رتبة ضابط متميز ذو وضع خاص،و كان يترأس فرقة "السبايس"،ماهر في قطع رؤوس الأهالي بطريقة خاصة،و هو صاحب فكرة رأس فرنسي مقابل عشرة رؤوس من أهل البلد، كما كان يتفنن في ضرب الأهالي بالعصا و لاسيما منهم أعيان البلد لجمع الضرائب و الاتاوات.[34]

الملحمة الأولى لسكان قسنطينة :

انطلقت الحملة الأولى من مدينة عنابة في شهر نوفمبر 1836،و تعد في رأي "ماسبيرو" متأخرة بالنسبة للموسم،لأن "الماريشال كلوزيل" انتظر الامتدادات و التعزيزات العسكرية كثيرا من الحكومة الفرنسية .

و تشير بعض المصادر الفرنسية،الى أن الطريق التي سلكها الجيش الفرنسي كان موبوءا،حيث أصيب الكثير من أفراده بحمى المستنقعات و الكوليرا ، مما جعل المملوك يوسف يغير المسالك عبر الممرات الجبلية.[35]

فكانت الأمطار الغزيرة لا تهدأ و الحرارة منخفضة جدا وصلت الى 8 درجات تحت الصفر ، و الوديان في حالة فيضانات ، و كانت الثلوج تغطي الأرض و معسكر الجيش ، بحيث وجدوا في الصباح نحو 17 جنديا متجلدا من شدة البرد، و انتحر نحو اثنان منهم . بسبب هذه الظروف، و كأن الطبيعة غاضبة لذلك،مما جعل المسيرة نحو مدينة قسنطينة تستغرق أكثر من أسبوع.[36]

و كان الماريشال كلوزيل يرى بأن حملته ستكون نزهة عسكرية و سيدخل المدينة بدون قتال ، لدرجة أنه أخذ معه بعض " السوّاح " للتمتع بالمناظر ، و بنتائج الحملة السهلة ، و كان من بين السوّاح الدوق" أورليان " (Duc d'orleon)،و هو الابن الأكبر للملك الفرنسي "لويس فليب"،رفقة أخيه القائد "نمور"(Nemour) [37].

و كانت الحملة في نظر المارشال و تقديره سهلة بسيطة يغيّر أثناءها الباي المكروه،بالباي الجديد و سيلقى الترحيب من أهل البلد لإبعادهم عن حكم الحاج أحمد باي و تحريرهم منه و ما عليه إلا أن يوجه نداءه الى السكان ،

بواجب طاعة يوسف المملوك الحاكم الجديد على قسنطينة ، و تشير المصادر الفرنسية الى أن الماريشال لم يضع خطة عسكرية واضحة لهذه الحملة مستصغرا المقاومة و دفاع أحمد باي ، و لعل ذلك لتبرير الهزيمة الساحقة التي لقيها الماريشال و قواته. و هو الأمر الذي جعل المقدم "شانغارنيي"(Charaganier) ، قائد فرقة المشاة ، يقوم بحماية مؤخرة الفيلق بصفة مستمرة أثناء الانسحاب ، فقد ضمن مذكراته انتقادات لاذعة للتهاون و الاستخفاف بهذه الحملة ، و عدم التخطيط لها تخطيطا جيدا و التحضير لها تحضيرا يليق بمقاومة السكان الشديدة ، و بموقع المدينة فوق جبل من الصخر لها منحدرات وعرة تنعطف على وادي الرمال ، و مزودة بمدفعية عصرية جعلها محصنة تحصينا طبيعيا منيعا.[38]

و بدأ الزحف على مدينة قسنطينة يوم 08 نوفمبر 1836 م، من مدينة عنابة، و مرت بعدة مراحل،بحيث تجمع مساء هذا اليوم جميع القوات بالدرعان، و منه الى " النشماية "،و وصلت الى جبل " موالغة " يوم 09 نوفمبر 1836م ، و تقدمت الى الاثار الرومانية بقالمة يوم 10 نوفمبر و عسكرت بمرتفعات فجوج بقالمة في 15 نوفمبر 1836م.[39]

و في اليوم الموالي انطلقت الحملة من جديد نحو مدينة قسنطينة ، و عبرت " مجاز عمار " و الوصول الى بلدة " وادي زناتي "،حيث أقيم معسكرا في " سيدي طمطم "،الذي انسحب منه الحاج أحمد باي بقواته ، لاستدراج العدو الى قسنطينة حسب الخطة التي وضعها،مستعملا المناوشة الخفيفة و الكر و الفر،لأن قوات العدو تفوق قواته عددا و عدة، لا يستطيع مواجهتها و الالتحام معها مباشرة من جهة،و لأن جيوشه لم تكن قادرة على التحرك

بسهولة في الأراضي التي تجتازها قوات العدو.[40] فأخذ يطاردهم، و يستدرجهم الى المعركة الحقيقية في المدينة المحصنة بالمدافع و الأسوار و الرجال و بالصخر العتيق.[41]

و كما أشرنا فقد صادف الحملة،أن ساءت الأحوال الجوية بشكل مفاجيء،فسقوط الأمطار و الثلوج بغزارة،سبب في عرقلة سير الحملة بشكل عادي،أما جيوش الحاج أحمد باي،فلم تتأثر كثيرا بهذه الأحوال الجوية لأنه متعود على مثل هذه الظروف الطبيعية القاسية .[42] فأغار على العدو يوم 20 نوفمبر في المكان المعروف " بعقبة الأشعري "[43]،على مسيرة يوم واحد من قسنطينة ، فكبد العدو خسائر معتبرة.[44] ثم انسحب ، مع مواصلة الهجومات و المناوشات على القوات الفرنسية،و في هذا الصدد يقول الحاج أحمد باي : "**و على أساس هذه الخطة ، لم تعد المدفعية تفيدني كثيرا ، فأرسلت جزءا منها الى المدينة ، و انسحبت مع الأجناد ، الى مؤخرة الجيش الفرنسي ، لا تفصلني عنه سوى مسافة قصيرة جدا ارقب باستمرار جميع حركاته**"[45].

و في صبيحة يوم 21 نوفمبر ، كانت قوات العدو قد وصلت بصعوبة الى موقع الصومعة (الخروب) حيث يوجد ضريح الاغليد ماسينيسا ، بقيادة الماريشال كلوزيل ، الذي لم يتمكن من التحكم في طليعة قواته ، بسبب غارات و مناوشات خيالة الحاج أحمد باي ، و من هذا المكان ظهرت لهم مدينة قسنطينة ، التي كانوا ينتظرون من أهلها التهليل و الترحيب .و بعد قضاء ليلة كاملة فيما أطلق عليه " بمعسكر الوحل " ، تقدمت قوات كلوزيل نحو المدينة ، في الظروف الجوية المتردية ، بحيث قضوا يوما كاملا في قطع " وادي

لحميميم " و " وادي بومرزوق" بسبب الفيضانات الغزيرة، و في نهاية هذا اليوم استطاع كلوزيل الوصول بمقدمة جيشه الى سطح المنصورة ، في الوقت الذي كانت فيه مؤخرة جيشه ، تطاردها فرسان أحمد باي في منطقة الخروب .[46] و هذا يدل على أن الجيش الفرنسي كان منتشرا و ممتدا على مسافة قدرها ستة عشر كلمتر بين الخروب و سطح المنصورة ، لأن الماريشال كلوزيل كان يسرع الخطى للوصول الى المدينة ، حيث يوجد الاستقبال من طرف أهلها ، إلا أن هؤلاء قابلوه بقذائف المدفعية المكثفة من أسوار باب القنطرة و من القصبة ، تعبر عن مقاومتهم و حماية مدينتهم و أهلهم من الغزو الأجنبي العدواني ،و التمسك بقائدهم و حاكمهم أحمد باي . عند ذلك أخذ جيش العدو ينصب مدفعياته و بطرياته في سطح المنصورة و هضبة سيدي مبروك.[47]

و كان لمدينة قسنطينة الحصينة منفذان رئيسيان :

الأول : باب القنطرة و جسرها الوحيد في الجهة الشرقية ، يربط الجزء المنخفض من المدينة بسفوح سطح المنصورة.

الثاني : كدية سيدي عاتي ، و هي عبارة عن تل مرتفع يقع مقابل الأبواب الثلاثة المتواجدة غرب المدينة و جنوبها و هي : باب الجديد و باب الوادي و باب الجابية ، و على يسار الكدية تمتد ضاحية" عوينة الفول " ، تضم عددا من الدكاكين الموزعة بين باب الجديد و الكدية ، أنشأها صالح باي الذي تميز عهده بالانجازات العمرانية و الثقافية.

فأصبح هذان المنفذان، الميدانان الرئيسيان لساحة الوغى و المعارك، بين الطرفين ، نصب العدو هيئة أركانه و مركز قيادته في سطح المنصورة ، المقابلة للمنفذ الأول (باب القنطرة) ، فقسمت الجيش الى أربعة ألوية و توزع اللواءان الأولان ، بقيادة الجنرال "تريزيل " في سفح سطح المنصورة لحصار باب القنطرة و الجهة الشرقية للمدينة ، و انتشر اللواءان الآخران بقيادة الجنرال "ديرنغي" حول كدية سيدي عاتي حيث يوجد المنفذ الثاني ، فقطع هذا الأخير وادي الرمال من المكان المعروف اليوم "بمجاز الغنم" متجها نحو منحدرات باردو ، في محاولة لتسلق الكدية و احتلالها.(48)

و كانت قوات الحاج أحمد باي،منقسمة هي الأخرى الى فيلقين كما سطر لها قائدها،الفيلق الأول يوجد داخل الأسوار بقيادة كل من"ابن عيسى" و " محمد بلبجاوي" موزع على اسوار المدينة من الشرق و الغرب و الجنوب و على أسوار القصبة ، يتكون من 2400 جندي ، مجهزين بالمدافع و البنادق، و الفيلق الثاني متحرك تحت قيادة أحمد باي يضم 5000 فارس و 1500 من المشاة،خارج أسوار المدينة،لمحاصرة العدو من الخلف، و كانت قيادته متمركزة في المكان المعروف " بالأقواس الرومانية "،حيث يستطيع منها مراقبة تحركات العدو في كل الاتجاهات (49).

خشي الحاج أحمد باي من أن تكون حامية قسنطينة غير كافية للتصدي للعدو،فأرسل جزءا من عساكره الى داخل المدينة ، لمؤازرة إخوانهم و تعضيدهم، فتسللوا الى المدينة عن طريق منحدرات الطابية ليلا وسط الجيش الفرنسي ، و التي تقع ما بين القصبة و باب الجديد ، مقابلة لسيدي لمسيد.(50)

وقع هجوم من العدو في ليلة 21 نوفمبر و امتد طوال الليل و اليوم التالي و كانت الأمطار غزيرة شكلت عائقا على المتحاربين ، إلا أنها كانت أقل ضررا بالنسبة لجيش المقاومين و المتعودين على الميدان و على الطبيعة،و قد استفادوا من جميع هذه المزايا،بحيث لم يسمحوا للعدو بأن يذوق طعم النوم و الراحة.(51)

و بادر ابن عيسى بترك مواقعه الثابتة في الداخل و تعدى أسوار المدينة بقوة من جنوده زادت عن ألف مقاتل في محاولة لاختراق صفوف العدو ، و منعه من الوصول الى الكدية ، بالتنسيق مع الحاج احمد باي من خلف خطوط كدية سيدي عاتي يوم 23 نوفمبر 1836م.(51م) فشن عليهم هجوما بألف مقاتل ، من باب الوادي ، متبوعا بعدد من النساء و الأطفال خرجوا خلفه لتشجيع المقاتلين بالتكبيرات و الزغاريد.(52) فأصاب العدو بخسائر فادحة في الأرواح و المعدات ، و نتيجة لهذه الهزيمة شن العدو هجوما مضادا بالفرسان ، ضد ابن عيسى و قواته ، فاضطر هذا الأخير الى التراجع للاحتماء بأسوار المدينة.

و نظم ابن عيسى هجوما آخر على العدو من جهة باب القنطرة، القادم نحو منحدرات سطح المنصورة ليتصدى لهجوم العدو المزدوج الذي قام به العدو على المنفذين الرئيسين باب القنطرة و الكدية.

لم يكترث الحاج أحمد باي للهجوم الموجه الى باب القنطرة من الشرق ، لأن الوصول الى باب القنطرة من الصعوبة بمكان ، يتطلب اجتياز القنطرة الضيقة المسلك ، و التي يتمكن حراسها أن يقاوموا العدو بسهولة.(53)

أما باب الجديد فإن الأمر يختلف،لأنه يقع بين مفترق طرق الأجزاء الموحدة بين كدية سيدي عاتي و المدينة،و هي النقطة الحساسة في المعركة التي يجب التركيز عليها.[54]

و كان الجو قد ازداد برودة و رداءة، و جيش أحمد باي يستعد لاستقبال اليوم السابع من المعارك ، و جيوش العدو تتقدم ببطء نحو باب الجديد أثناء الليل ، و الهدف من تقدمهم محاولة إتلاف قضيب حديدي كان يمسك الباب، فتحرك المدافعون نحوها مستعملين الحبالة و هو نظام خاص ، من أجل تحكيم التصويب ، فانطلقت المدفعية لكن القنبلة لم تصب الهدف، غير أنها اجتازت ثلاثة أبواب، و استقرت في أعماق سور أحد المساكن المجاورة لقوتها . غير أن الباب لم ينفتح،و كان رد فعل المقاومين من داخل الاسوار قويا و سريعا، فمن القمة المحصنة أطلقوا النار على العدو ، فقتلوا منهم نحو 16 جنديا فرنسيا، و هرب الباقون تاركين وراءهم قتلاهم و مدافعهم و بعض الخيول المجروحة.[55]

أما من جهة باب القنطرة ، فقد تقدم العدو ، يحمل معه أكياسا من التراب و السلاليم و صناديق البارود لتهديم الباب ، و عندما بدأوا يتهيأون لوضع المتفجرات و ضرب الباب ، اطلق عليهم جنود " ابن عيسى " نيران المدافع ، فقتلوا من جنود العدو أكثر من 12 قتيلا ، و ظلت المدفعية القسنطينية ، تطلق عليهم النار حتى لم يتحمل العدو هذه النيران المكثفة ، فانسحب تاركا وراءه السلاليم و صناديق البارود و مجموعة معتبرة من المعدات.[56]

و عندما حل الليل أعطي لجيش العدو هدنة مؤقتة لإعادة التوازن في صفوف فرقه و طوابيره ، الى جانب تنصيب بطاريات مدفعية أخرى على المنفذين.[57]

و قد استفاد الجيش القسنطيني هو الآخر من هذه الهدنة بحيث تفقد كل من أحمد باي و ابن عيسى جيشهما و مواقعهما خارج أسوار المدينة و داخلها و ترميم ما أفسدته الحرب،و كان الأئمة من فوق مآذن المساجد يشجعون المقاومين المجاهدين،و يحثونهم على الصمود ، و يطلبون من الناس التحلي باليقظة،و كانت النداءات و التكبيرات تتكرر طيلة أيام الحصار.[58]

و في صبيحة يوم 22 نوفمبر ، انطلقت المعارك من جديد على جميع الجبهات،بحيث كثف العدو رشق المدينة بالمدافع و البطاريات،فرد عليه "ابن عيسى" بالمثل ، في الوقت الذي كان فيه أحمد باي خلف خطوط العدو يناوش مؤخرة الجيش الفرنسي، و لاسيما تلك التي كانت تحمل المؤن و الذخيرة الى سطح المنصورة ، فتمكن من القضاء على قوات الحراسة و استولى على الجزء الكبير من قافلة التموين و الإمدادات و الذخيرة و غنم ما كان معها،فذهلت لذلك هيئة أركان العدو،و خشيت من نقص العتاد و المواد الغذائية لمواصلة الحصار ، فقررت أن تكثف الهجومات لاحتلال المدينة بسرعة قبل أن تنفذ المعدات و المؤونة.

كثف احمد باي من مناوشاته بعد هذا الانتصار،و واصل حربه خلف خطوط العدو،لضرب معنوياته و تحطيم قدراته،و ركز على إرهاقهم بالقتال المستمر في الجبهتين الشرقية و الغربية.[59]

و حاول الفرنسيون بدورهم اقتحام باب القنطرة من جديد في ليلة 22 الى 23 نوفمبر،فأطلقوا وابلا من قذائف المدافع نحوها، فتضرر باب القنطرة من هذه الطلقات،التي فرح لها العدو ، غير أن الفرحة لم تكتمل عندما وجدوا بابا ثانيا خلف الباب الأول أكثر صلابة ، فخاب ظنهم و عادوا من حيث انطلقوا.(60)

كما خطط العدو لهجوم آخر على الموقعين الاستراتيجيين و هما الجزء العلوي من جهة كدية سيدي عاتي ، و الجزء السفلي من باب القنطرة ، بحيث يكون الهجوم الأول عبارة عن مناورة تضليلية خداعية ، يغطي الهجوم الحقيقي على باب القنطرة . و قد تفطن ابن عيسى لهذه المناورة، فأسرع بسد الثغرات و ترميم الأسوار التي أصابها العدو، و دعم دفاعاته و جددها فوق الأبواب و الأسوار و جعل الحراسة ليلا و نهارا.(61)

و في ليلة 23 الى 24 نوفمبر 1836م حاول العدو مرة أخرى الاقتراب من المنفذين الأساسيين في هجوم مزدوج و مكثف،على البابين لتشتيت الدفاعات الداخلية،بحيث قامت فرقة بقيادة العقيد"دوفيفييه" لمحاولة نسف باب الجديد، المتفجرات القوية،و بمدفع تمكنوا من جره الى مسافة قريبة منه،إلا أن المقاومين، كانوا أسرع منهم فتصدوا لهم بوابل من القذائف المدفعية و الرصاص،و نزل بعض جنود ابن عيسى بواسطة الحبال ، مستغلين الفوضى التي انتابت جنود العدو من جراء القصف،و هاجموهم هجوما كاسحا،مما جعل الفرقة بقائدها يطلقون سيقانهم للريح تحت الرصاص المكثف.(62) و تراجعوا الى الوراء بعد هزيمة ثقيلة قتل من أفرادها ما يزيد عن 33 جندي و إصابة 79 آخرين بجروح متفاوتة الخطورة.(63)

أما من جهة باب القنطرة ، فقد توجهت وحدات من جيش العدو المتكونة من المهندسين،لوضع عبوات ناسفة و متفجرات ، مستعملين أكياس من الرمل و السلاليم أمام الباب و سورها ، بينما كان الجنرال " تريزيل " يستعد بقواته لاختراق الباب و الأسوار،غير أن القسنطينيين من داخل المدينة،كانوا يراقبون المهندسين المتسللين عبر الجسر،فأمهلوهم حتى اقتربوا من الباب، فتصدى لهم القناصة و قذائف المدافع، فهلك منهم الكثير ، بينما تراجع الباقون تاركين عتادهم و أدواتهم و أسلحتهم خلفهم.[64] و كانت هذه المحاولة قد جرت تحت ظلام الليل،و عندما سمع الجنرال تريزيل ذوي المدافع و قصفها ظن أن جنوده قد فجروا الباب فاندفع بقواته الى الجسر فتصادم مع فصيلة المهندسين الهاربة، فحدثت فوضى في طوابيره ن فاستغل ابن عيسى هذه الوضعية و كثف من القصف صوبهم،فاضطر الجنرال و جنوده الى الانسحاب و العودة الى المنصورة ، جارا وراءه ذيول الخيبة ، فأسفرت هذه العملية على قتل نحو 140 جنديا فرنسيا ، و إذا أضفنا لهم ما قتل في باب الجديد يصير مجمل القتلى 252 قتيلا.[65]

و عندما تحقق المارشال "كلوزيل" من استحالة اقتحام أسوار المدينة و أبوابها و من عدم ترحيب أهلها به و بجنده ، قرر الانسحاب و أطلق على قسنطينة " مدينة الشيطان "، الى مدينة عنابة ، بسرعة دون انتظار لم شمل قواته كلها و تجميعهم قبل الانطلاق،و لاسيما تلك التي كانت في كدية سيدي عاتي،فانسحب من المعركة يوم 24 نوفمبر 1836 بعد أكثر من ثلاثة أيام من القتال و الحصار ، مسرعا نحو مدينة عنابة ، خوفا من الإبادة التي قد تلحقها بهم قوات احمد باي،تاركين وراءهم جرحاهم و مرضاهم و عتادهم و مؤنهم، التي سلمت من التذمير ، منها قطعتين من مدفعية الميدان و 50 ألف رصاصة ، و

عتاد الهندسة و ألف قطعة من الأدوات الحديثة ، و صناديق السلاح و أطنان من البسكوت و السكر و البن و صناديق من الأدوية و أدوات الجراحة.[66]

و تشير المصادر الفرنسية بان المارشال خلف وراءه ما يزيد عن ألف قتيل من جنوده.[67] و أمر احمد باي بملاحقة الجيش الفرنسي و مناوشته مناوشات خفيفة دون الانقضاض عليه و هو في حالة انسحاب و هروب،و كان بإمكانه أن يقضي على مؤخرته،كما فعل الباسك و جنود عبد الرحمان الداخل مع مؤخرة جيش شارلمان في منتصف القرن الثاني الهجري الثامن الميلادي ، عندما قدم لمحاصرة مدينة سرقسطة، فأبادوا مؤخرة الجيش الذي كان يقوده "رولان" و الذي أصبح أسطورة يتغنى بها المسيحيون و نظموا من اجل ذلك أغنية أطلقوا عليها أغنية رولان La chanson de Roland . لم يعد بعدها شارلمان لقتال المسلمين.و كان باستطاعة احمد باي أن يفعل ذلك بقواته الكثيرة التي بقيت على حالها طوال الهجوم،و الظاهر أنه أراد بذلك مجاملة"المارشال" و"الدوق نمور" لعله يجد في هذا التصرف التفاتة إليه من قبل الحاكم العام أو من الملك الفرنسي ، و بالتالي يجلبهم للتفاوض و الاعتراف بحكمه على المقاطعة ، أما الذين هاجموا فلول جيش العدو فهي فرق من القبائل أرادت أن تنتقم من العدوان كما أشار الى ذلك احمد باي [68]

و في ذلك يقول:"**رفضت أن أغتنم فرصة رداءة الطقس لألحق خسائر أخرى بالفرنسيين.**"[69] و يضيف" **لو أننا نبيد الجيش كله بمطاردتنا هذه و مواصلة هجوماتنا المستمرة فان فرنسا ستعمل بصرامة على اخذ ثأر هذه الهزيمة الأمر الذي يؤدي الى هلاكي**"[70]، و كان يأمل إذا تركهم يعودون

سالمين بحسن نيته ، سيوفدون إليه شخصا يفاوضه و يعمل معه على إرساء سلم متين يخرجهما من حالة الحرب.[71] و أن توصيته بعدم الضغط على الجيش الفرنسي المهزوم سنة 1836 تدخل في هذا السياق. فعندما نصحه ابن عيسى بأن يأمر القبائل للقضاء على الجيش الفرنسي امتنع عن ذلك و قال له: " **إن الفرنسيين لا ينامون على هزيمة ، فرجوعهم يوما لأخذ الثأر لا محال آت و سيكون مروعا و خصوصا اذا ألحقنا الضرر بأبناء الملك الموجودين هنا في صفوف الجيش**" فلهذا السبب امتنع الحاج احمد باي ، تشديد الضغط و القضاء على مؤخرة جيش العدو.[71م]

و تعتبر هذه الحملة الأولى على قسنطينة التي قادها المارشال كلوزيل شخصيا و معه أبناء الملك الفرنسي و العديد من الجنرالات و العقداء ، اخطر هزيمة مني بها الجيش الفرنسي خلال الاحتلال ، و لم يسلم من الفناء التام إلا بسبب خوف الحاج احمد و جنوحه نحو المفاوضات للخروج من هذه الحرب و بفضل حنكة المقدم "تانغارني"و برودة أعصابه وفرقته للمشاة التي أوصل بها جيشهم الى بر الأمان كما يشير الى ذلك "ماسبيرو"[72] و كان كل جريح تركوه في المؤخرة كان مصيره القتل. [73] فقد دخلت مجموعة من التونسيين الى مغارة المنصورة فوجدوا المرضى و الجرحى الذين تركهم جيش العدو الى مصيرهم، فذبحوا عددا كبيرا منهم حسب احمد باي[74] .بينما يذكر ابن عيسى بأن أهل قسنطينة هم الذين أسرعوا بعد الانتصار الى المنصورة و قضوا على الجرحى.[74م]

فقد تابع فرسان احمد باي الجيش الفرنسي الى الصومعة (الخروب) و استمر في ملاحقته لهم الى ان وصلوا الى "مجاز عمار" و قالمة ، ثم عاد الى قسنطينة ، ليشكر أولئك الذين صنعوا له النصر[75]، و في الطريق وجد عددا كبيرا من العربات المشحونة بالمؤن المختلفة الأنواع ، وجد فيها البسكوت و السكر ، و القهوة و أدوات التشريح و عتاد الحرب و الحصار و الخمور و الأحذية أي كل ما يحتاج إليه جيش العدو.[76]

لما عاد احمد باي الى مدينته ، تفقد أحوالها،ثم أمر ابن عيسى بإصلاح ما أفسدته الحرب في الحصون و الاسوار و الابواب ، فقام بترميم الحواجز و أمر بحفر خندق و إقامة تحصينات جديدة يسهل بها إغلاق شوارع المدينة في الحال و جعل العدو في حالة دخوله المدينة امام عقبة و حاجز آخر لابد له من فرض حصار جديد حولها ، و كان الذي يساعده في مهمة الدفاع الحاج محمد بلبجاوي قائد الدار (رئيس القصر) [76م] و اعاد احمد باي تسليحها بالمدافع و احاطها بالحصون و المتاريس من الصخور الصلدة ، و التحصينات المزدوجة و المثلثة .

ثم أمر بتذمير و تهديم بعض المنازل و الدكاكين و المسجد باستثناء المأذنة التي كانت قائمة ما بين كدية سيدي عاتي و أسوار المدينة ، حتى لا يلجأ إليها العدو و يحتمي بها كما فعل في هذه المرة. و قام بهدم البناءات الواقعة ما بين باب الوادي (البريد المركزي) و باب الجابية (رأس جسر سيدي راشد) و أنشأ مكانها بعض التحصينات ، و لم يترك إلاّ ضريح المرابط سيدي "فارق" لأن

الناس يعتقدون فيه، و أن الولي في نظرهم يقوم بحماية أبواب المدينة من الأعداء و الشرور، و أمر بوضع الاعلام على طول الاسوار[77].

ثم أخذ احمد باي بشراء الأسلحة و جمعها من مختلف المناطق ، و اشترى أيضا كمّا كبيرا من البنادق و المدافع و البارود بثمن باهض من تونس، استعدادا للجولة الثانية مع العدو الفرنسي،و أرسل الى السلطان العثماني محمود يخبره بما جرى في بايلك قسنطينة، و في نفس الوقت يطلب منه معونة كافية لرد العدوان،فأجابه السلطان وأنفد إليه مساعدة تتكون من أربع بواخر مشحونة بالجنود الأتراك و على متنها 12 مدفعا و 150 من المتخصصين في المدفعية،و غيرها من العتاد ، إلا أن داي تونس حال دون وصول هذه المساعدة ، متدرعا بالاتفاقية المبرمة مع الدولة الفرنسية ، و خوفه على السكان من انتقامها [78]. لكن تعليله هذا لا يغطي طمعه و طموحه في امتلاك بايلك الشرق.

و قد جرت في فترة الهدوء اتصالات ما بين الباي احمد و الوالي العام الفرنسي "كلوزيل" عن طريق النقيب "فولتر" و اليهودي "بعجو" [79] و كان الاتصال الثاني مع الوالي الجديد " دي مريمون " بواسطة اليهودي " بوجناح "، و لكنها لم تسفر عن نتيجة بسبب تعنت فرنسا و شروطها المجحفة، و كان احمد باي لا يحب اليهود الوسطاء و لا يرجى منهم الخير و يصفهم" **بالضباع التي تأتي بعد معركة الأسود تلتقط البقايا** ".

الملحمة الثانية لسكان قسنطينة :

و الى جانب هذه المفاوضات و المحاولات التي تؤدي الى السلم و عدم إراقة الدماء ، كان احمد باي يستعد للمعركة القادمة ، فاستدعى جميع الجيوش في مقاطعة بايلك الشرق ، و قد لبّى الجميع لنداء الجهاد ، و تأهبوا للجولة الثانية مع العدو و حضر الى قسنطينة رؤساء القبائل و كبار المقاطعة و هم :

مسعود بن لمبارك شيخ ريغة.

زرقي شيــخ الحنـــانشة.

الحاج رجب شيخ الحراكتة.

العربي ضياف شيخ الاوراس.

محمد بوعزيز شيخ بلازمة.

شيــخ اولاد بوعـــون.

أحمـــد المقـــراني.

محمد عبد السلام المقراني.

ولد عبد الله المقـــراني.

شيخ أولاد الحداد ،بن محمد بن مســعود.

ابن الحفصي المقراني ، قائد ساحل سكيكدة.

قائد أبا احمد شيخ المعاطلة.

بوطيب البادي.

محمد بن مراد قائد الشقفة.

بوعزيز بن قانة شيخ العرب[80].

محمد بن الحاج قائد التلاغمة.

بوعكاز شيخ فرجيوة.

بن عز الدين شيخ الرواغة.

محمد بوعزيز قائد أولاد عبد النور[81].

كما إلتحق مولي الشقفة و قائد قبائل جيجل و القل بأكثر من 10.000 عشرة آلاف مقاتل ، و فرق أخرى من ميلة و من كامل أنحاء البايلك ، و يعني هذا أن احمد باي استطاع أن يجمع ما يزيد عن 22 ألف مقاتل ما بين فرسان و مشاة، فضلا عن الجنود المتخصصين في المدفعية من بينهم علي المعروف " بالبومباجي جورجي بولداشي" ، الذي برهن على مهارته و قدرته في تصويب ضرباته بالمدافع . و اخضع رماة المدفعية الى التدريب المكثف لرفع كفاءة التسديد و القتال.[82]

و بدأ في مناوشة الجيش الفرنسي في مواقعه بالدرعان و مجاز عمار لمعرفة استعداداته ، و إلهاهه عن الحصار الجديد ، و كان يعلم بأن، هناك قوات جديدة جاءت من الجزائر و غرب البلاد لتعزيز قوات العدو ، و لاسيما بعد الهدنة و المعاهدة التي أبرمها الأمير عبد القادر مع الجنرال "بيجو" و المعروفة .بمعاهدة "تافنة" في 30 ماي سنة1837م ، اعترفت فيها فرنسا بدولة الأمير عبد القادر على ميناء أرشقول و تلمسان و قسما كبيرا من مقاطعة وهران و أرزيو و مستغانم و مزغران و منطقة التيطري.[83]

أما الجهة الشرقية ، فقد صيغت النصوص حولها صياغة مبهمة ، مع اختلاف ملحوظ ما بين النسختين العربية و الفرنسية كما يشير مسبيرو.[84]

و أن هذه المعاهدة سمحت "لدي مريمون" ، بنقل القوات من وهران الى عنابة للمساهمة في الجولة الثانية ، و على الرغم من ذلك لم يكن هذا الأخير راضيا كل الرضى على هذه المعاهدة ، و اتفق مع رأيه كل من "مونتانياك" و "كانروبير" ، و قد خالفهم في الرأي " سانت آرنو" لأنه معجب بشخصية "بيجو" أستاذه العملي(85).

أتهم " بيجو" الجنرال بروسار Brossard بتلقي الرشاوي و بتجارة الأسلحة مع الأمير عبد القادر،و أوقفه عن القيادة و قدم ضده عريضة. فانعقد مجلس الحرب للنظر في ملف القائد "بروسار"،و أثناء المحاكمة أثار هذا الأخير قضية ضد "بيجو" و شن عليه هجوما في المحكمة ، و اتهمه بان هناك بنود سرية في معاهدة " تافنة " لم يصرح بها ، ثم انه باع للأمير ما يزيد عن ثلاثة آلاف بندقية حرب، و طلب منه مقابل ذلك مائة ألف " بوجو" و إبعاد خصمه القديم مصطفى الى المنفى.(86)

و لعل الحاج احمد باي،كان يطمح هو الآخر الى إبرام معاهدة مع الفرنسيين،يعترفون به بايا على الشرق الجزائري ، كما فعلوا مع الأمير عبد القادر،و لهذا كانت عدة اتصالات مع القادة العامون مثل كلوزيل و الوالي الجديد "دي مريمون"،الا أنها باءت بالفشل لشروط العدو المجحفة المقلل للسيادة ،كدفع الإتاوات و إقامة حامية فرنسية في قصبة قسنطينة،و حمل العلم الفرنسي في المدينة، فاصطدمت هذه الشروط برفض الباي و ديوانه.(87)

الاستعدادات للملحمة الثـــانية:

بعد تجمع قوات العدو في مدينة عنابة اجتمع "دي مريمون" بهيئة أركانه ، لوضع خطة للجولة الثانية ضد سكان مدينة قسنطينة لاحتلالها و محو آثار الهزيمة التي مني بها جيش " كلوزيل " ، بتكليف من الحكومة الفرنسية ، و استهل عمله بإنشاء عدة محطات و حصون على الطريق المؤدي الى قسنطينة ابتداءا بالدرعان و نشماية و حمام الباردة مرورا "بقالمة" و "مجاز عمار"، الذي اصبح القاعدة الاساسية لانطلاق العملية العسكرية و مصدر التموين و الامدادات.(88)

و كان "احمد باي" قد بعث محمد العنتري الى دي مريمون في محاولة أخرى للتفاوض معه ، وعندما وصل هذا الأخير الى " مجاز عمار "، بعد المعارك التي قادها ضدهم القائد عمار بن زقوطة ، خليفة الحاج احمد باي في الجهة الشرقية و هو المعروف بالحاج عمار الماركانتي (الثري) ، و سمي مجاز عمار باسمه ، و نسبة إليه. و قد استمرت هذه المناوشات بينه و بين العدو طوال ثلاثة أيام كاملة في شهر أكتوبر 1837.(89)

و كان احمد باي قد أوصى محمد العنتري ، أن يتحسس مدى قوة العدو و عدده ، و استعداده لهذا الهجوم ، و محمد العنتري هذا هو والد محمد الصالح العنتري صاحب كتاب "تاريخ البايات". و عند رجوع المبعوث الدبلوماسي، الى ديوان الباي كان متأثرا بقوة العدو و استعداداته ، فأخبره بذلك ، غير أن

أعوان الباي و على رأسهم محمد العربي المدعو "ابن عيسى" ، لم يصدقوا كلام محمد العنتري،و لم يقتنعوا به ، بل اتهموه بالخيانة و الرشوة،لإحباط معنوياتهم، فادخلوه السجن الى أن مات.[90]

اجتمع العنتري بالقائد الفرنسي في حمام المسخوطين ، و قدم له مطالب احمد باي و شروطه ، من بينها العدول عن مهاجمة مدينة قسنطينة ، و التخلي عن مدينة عنابة لأنها الشريان التجاري الذي يتنفس منه سكان بايلك الشرق ، و كذلك التخلي عن مدينة "قالمة" ، و الاعتراف بسيادة احمد باي على إقليمه مقابل إبرام صلح بين الطرفين دون اللجوء الى القتال ، لكن القائد الفرنسي رفض هذه المطالب.[91] و استعد للحرب بحشود و قوات اكبر من الحملة الأولى لأنها معركة حاسمة و مصيرية لكلا الجانبين.

لم تكن الوسائل الحربية شحيحة للجانب الفرنسي في هذه المرحلة فقد جند اكثر من 20 الف جندي موزعين على أربع فرق ، كل فرقة معززة بكمية معتبرة من العتاد ، و بمدافع قوية ، و فرقة من جنود الهندسة العسكرية، مجهزة بوسائل فرض الحصار و بالمتفجرات.

فالجيش الفرنسي كان في غاية التأهب و التنظيم لأنهم استفادوا من درس الهزيمة ، يحمل كل جندي على ظهره مؤونة اثني عشرة يوما هي زاده و قوته،من الخبز و الفطائر الجافة و الملح و القهوة و السكر لتعويض الخمر زيادة على ذلك يحمل حزمة حطب فوق كل حقيبة ، و في كل يد عصا طويلة يتكئ عليها الجندي عند تسلق الجبال ، و يستعملها لأغراض أخرى.[92]

و كان يؤطر الجيش الفرنسي مجموعة من أحسن الجنرالات و أكثرهم خبرة عسكرية في ميدان الحرب بأوروبا بقيادة " د ي مريمون". و بمساعدة كل من الجنرال "فالي" Valee قائد المدفعية،و متخصص فيها،و الجنرال"تريزيل"، الذي شارك في الحملة الاولى،و الجنرال" رولهيار"و الجنرال "كارامان" و"الجنرال "لامي" و الجنرال "روهول دي فلوري"، المتخصص في سلاح الهندسة العسكرية ، و الجنرال روليير Rulliere و الجنرال "بيريغو"و العقيد كامب Cambs و العقيد "لاموريسيار" قائد كتيبة زواوة ، و من النقباء " سانت آرنو" و "بيدو Bedeau و كلارك Clerc و سينيريي De Serigny و غيرهم من الضباط،و حضر هذه الحملة ايضا "الدوق نمور" و أخيه "جوانفيل" نجلا الملك الفرنسي "لويس فيليب"(94).

و كانت لجنة علمية ، ترافق الجيش برئاسة "بريوجير" على غرار حملة "نابوليون" على مصر ، و من الآليات الحربية الضخمة التي رافقت الجيش و نزلت بميناء عنابة ، و تقدمت الى معسكر "مجاز عمار" ، تنقلها 600 حاملة مدفع و 3000 حصان و بغل يجروهما نحو ميدان المعركة.(94)

و غاب عن هذه الحملة الدوق "أورليان" نجل الملك و يوسف المملوك اليهودي الذي شارك في الحلمة الاولى ، و الذي كان مرشحا لخلافة احمد باي على بايلك الشرق.فقد نال هذا الأخير انتقادات لاذعة من قبل ضباط العدو ، و وصفوه بأوصاف مهينة مختلفة ، و حملوه سبب الهزيمة في المرحلة الاولى ، لأنه كان الرجل المفضل عند "كلوزيل" ، فهو الذي أقنعه بان الحملة ستكون نزهة عسكرية ، و لا تستغرق كثيرا من الوقت.(95)

قام احمد باي بإحراق ما يفيد جيش العدو على طول الطريق الرابط بين مجاز عمار و قسنطينة و خاصة التبن الذي يمكن أن يتحصن فيه جنود العدو أو يستعملوه للتدفئة من البرد القارص،أو يكون علفا و غذاءا لخيولهم و مواشيهم.

لم يتوان قناصه احمد باي و فرسانه ، في التصدي لجيش العدو و مناوشته و ضرب الكمائن له ، في الليل و النهار ليمنعوه من التقدم نحو مدينة قسنطينة، و على الرغم من الضربات و الإصابات الكثيرة في صفوف جيش " دي مريمون" ، في مواقع مختلفة ، و لاسيما في صفوف اللفيف الأجنبي الذي كان في المقدمة ، إلا أنها لم توقف زحفهم و تقدمهم ، كما أصيبوا ببعض الأمراض ادخل من جرائها العشرات من جنود النقيب " سانت آرنو" الى المستشفى[96].

و يشير مسبيرو بان الجبال و المرتفعات من حول الجيش الفرنسي ، كانت مكسوة باللون الأبيض ، لكثرة من فيها من فرسان احمد باي ، يراقبون العدو و يناوشونه من حين لآخر.[97]

وصل جيش العدو الى مشارف مدينة قسنطينة ، يوم 06 أكتوبر حسب عبد الكريم بجاجة ، و لم تكن العملية العسكرية موفقة بالنسبة إليهم في البداية، و منذ أن تحركوا يوم أول أكتوبر ، لان الاشتباكات مع فرسان احمد باي ، كانت مستمرة ، ففي 4 أكتوبر وصلت القوات الفرنسية الى عين عبيد ، و في اليوم الموالي ، وقع اشتباك هام بين الجانبين الا ان الزحف لم ينقطع ، و ظلت كذلك الى ان وصلت طلائع العدو الى ضواحي مدينة قسنطينة و مشارفها ، يوم 6 أكتوبر[98]. بينما يذكر مسبيرو الذي اعتمد على مذكرات

"سانت آرنو" و رسائله بان الجيش الفرنسي وصل الى مشارف المدينة يوم 12 اكتوبر ، من غير خوض قتال حقيقي ، و يعني هذا ان المعارك حول قسنطينة ، لم تستغرق اكثر من ثلاثة ايام ، غير انه يشير في مكان آخر الى ان الحرب قد استغرقت ثمانية ايام كاملة ، بحيث كانت شاقة يصعب تصورها ، فالتخيم كان وسط الأوحال و المشي تحت الامطار الغزيرة و القتال يوميا من غير انقطاع[99]، و بالتالي فان الهجومات و المعارك العنيفة بدأت يوم 6 اكتوبر كما جاء عند " بجاجة" [100]. و ليس يوم 12 أكتوبر كما اشار مسبيرو.

و كان جنود العدو في حالة يرثى لها " بسبب سوء التغذية و الامطار الغزيرة و الاوحال و قلة النوم و انعدام الراحة ، فهي عوامل اجتمعت على جيش العدو،جعلته فريسة للامراض الفتاكة ، فكان الاسهال و الحمى هما سيدتا الموقف و عدوتان" **اشد فتكا من العرب**" كما ذكر" سانت آرنو"[101]. غير ان هذه العوامل المساعدة لجيش احمد باي لم يستغلها استغلالا جيدا ، بل لم ينتفع بها و لم تكن في مصلحته و لا في مصلحة أعوانه " ابن عيسى" و محمد بلبجاوي.

الهجـــــوم :

قام الجنرال"دي مريمون "، بوضع خطة عسكرية ، مع هيئة أركانه مستفيدا من أخطاء سلفه" كلوزيل" و من الهزيمة التي مني بها جيشه ، و كان من ضمن هيئة الأركان جنرالات و ضباطا كانوا قد شاركوا في الحملة الأولى،و أمر بان يكون الزحف بخطى وئيدة ، حتى لا تكون المسافة الكبيرة بين طليعة الجيش و مؤخرته ، و قد أنشأ محطات محصنة للانسحاب في حالة الهزيمة.

أما الهجوم فيرتكز على المحورين الأساسيين كالمرحلة الاولى لانهما المنفذين المؤديين للمدينة ، التي تتربع على الصخر و النفوذ اليها لا يمكن بأي حال من الأحوال إلا عن طريق باب القنطرة من الشرق أو الأبواب الثلاثة المقابلة لكدية سيدي عاتي في الغرب و الجنوب الغربي ، و أن المحور الأخير اقل صعوبة و حصانة من الاول ، و لهذا كثف دي مريمون قصفه و هجومه على هذه الناحية لإحداث شروخ و ثغرات في الأبواب أو السور المحيط بالمدينة ، و كلف الجنرال "ڤالي" بهذه المهمة لانه متخصص في المدفعية و خبير بها.

أما احمد باي ، فقد اعتمد على الطريقة الاولى التي انتصر بها على العدو ، مع زيادة في عدد المقاتلين من المشاة و الفرسان و تحصين المدينة ، و ظل هو بفرسانه خارج أسوار قسنطينة خلف خطوط العدو.

بدأت المعارك الحاسمة يوم 7 أكتوبر على جميع المحاور و الجبهات ، بدون انقطاع ، فاجتاز العدو وادي الرمال محاولا الوصول الى كدية سيدي عاتي ، فتصدى له المقاومون من أهل قسنطينة بوابل من الرصاص و المدفعية ، فأحدثوا خسائر معتبرة في جنود العدو ، و لكن لم تؤثر على تقدمه ، بحيث استطاعوا أن يصلوا الى الكدية ، و ينصبوا خمس بطريات فيها(102) ، و تعد احدى هذه البطاريات من أقواها و أصلبها تعرف " ببطارية الاقتحام"، تتكون من 4 قطع

عيار 24 ثم وضعها بالقرب من باب الوادي، و لم يبق بينها و بين السور سوى 160 متر فقط .

و تمكنوا أيضا في الجهة الشرقية من تنصيب اربع بطاريات في سطح المنصورة موجهة الى باب القنطرة والقصبة[(103)].و نشرت في أماكن أخرى عشر بطاريات عيار 24 و خمس قطع عيار 16 و 6 مدافع هاون و 14 مدفع حصار عيار 6 و 8.[(104)]

أما قوات أهل قسنطينة ، فكان بحوزتهم نحو 30 مدفعا منصوبا فوق الأسوار ، من باب الجديد الى باب الجابية ، و عددا آخر من المدافع كان فوق سور باب القنطرة و 12 مدفعا مصوبة من القصبة نحو العدو في المنصورة من بينها اثنان عيار 24 و عيار 50،فكان مجموع ما تملك قوات قسنطينة 60 بطارية.[(105)]

اقتصرت المعارك خلال خمسة أيام من 7 الى 11 أكتوبر على التراشق بالمدافع و التركيز على طلقاتها بين العدو و قوات المدينة،الى جانب الهجومات و المناوشات التي كان يقوم بها احمد باي بفرسانه خلف خطوط العدو في الجهتين كدية سيدي عاتي و سطح المنصورة .

و على الرغم من التراشق المكثف طوال هذه الأيام ، لم تحسم المعارك في الميدان ، و لم يتمكن العدو من اقتحام المدينة ، و تحت هذه الظروف أسرعت هيئة اركان العدو الى تكثيف الهجومات و التركيز على البطاريات لدك أسوار المدينة و ابوابها و بيوتها ، و تقوية معنويات جنودها الذين بدأوا يشعرون بالملل و الضيق يوما بعد يوم ، لأن العمليات العسكرية المختلفة لم تحدث النصر،

فصارت تقصف المنازل الاهلة بالسكان العزل لاجبارهم على الاستسلام و تركيز المدافع على الابواب الثلاثة باب الوادي و باب الجابية و باب الجديد، حتى تتمكن من احداث فجوات و ثغرات للنفوذ منها الى داخل المدينة.(106)

ثم أرسل دي مريمون مبعوثا خاصا الى سكان المدينة يعرض عليهم الاستسلام ، لكن اهل المدينة و حاميتها و شيوخها رفضوا طلب العدو ، و اقسموا في المساجد على انهم سيظلون يدافعون على أنفسهم و مدينتهم و أموالهم و أولادهم حتى الموت ، و كتبوا للقائد الفرنسي جوابا مفحما قائلين فيه : "**إذا كان النصارى في حاجة الى البارود فنحن مستعدون لإمدادهم به ، و إذا كانوا في حاجة الى الطعام ، فنحن على استعداد لاقتسام ما لدينا معهم ، أما التسليم فهذا لن يكون أبدا حتى نهلك جميعا**". و كان ذلك يوم 12 أكتوبر 1837.(107)

إن هذه العبارات البسيطة تدل دلالة واضحة على عمق المقاومة و التضحية و قوة الايمان بالجهاد في سبيل دينهم و بلدتهم ، و وطنهم ، و توضح الشهامة و الشجاعة و الكرم أيضا التي يتحولون بها . مما أدهش قادة العدو ذاته. غير أن العدو الذي جاء لتنفيذ مشروع الدولة ، لم تؤثر فيه هذه الكلمات ، بل استمر في حصاره للمدينة ، و انتقلت هيئة أركانه الى كدية سيدي عاتي لمعاينة قواتها و مواقعها و لاسيما منها بطاريات المدافع .

و كان احمد باي يراقب تحركات القادة ، من مركز قيادته خلف خطوط العدو.(108) فرأى بواسطة منظاره المقرب ، تحركات مجموعة من الضباط الساميين (هيئة الأركان) ، جاءوا لمعاينة " بطارية الاقتحام" في الميدان ، التي

كانت تقوم بقصف مكثف لباب الوادي و بدون انقطاع ، فأرسل احمد باي للتو إشارة الى المدافعين خلف الأسوار بواسطة المرايا المخصصة لذلك ، فتلقاها علي البومباجي ، قائد المدفعية ، و حلّ رموزها التي تشير الى ضرورة ضرب تجمع الجنرالات المتواجدين عند مدخل كدية سيدي عاتي ، عندها انتقل "علي البومباجي" الى أعالي القصبة ، للتأكد من ذلك التجمع و تحديد الموقع بواسطة منظاره ايضا،ثم عاد الى الباب الجديد،و منها صوب مدفعه نحو هيئة الأركان،فأصاب الجنرال "دي مريمون" القائد العام للقوات الفرنسية فلقي حتفه،كما أصاب القناصة القسنطينيين الجنرال "بيريغو" برصاصة اصابته في جبهته ، عندما كان منحنيا يتفقد جثمان قائده ، و توفي هذا الأخير بعد بضعة أيام من إصابته الدقيقة.(109)

فأثرت هذه الإصابة على جنود العدو و ضباطه و على معنوياتهم ، و حدثت الفوضى في صفوفهم ، فاستغل ذلك احمد باي،و قام بشن هجومات مكثفة على القوات الفرنسية من خلف خطوطهم ، و في المراكز المحددة في كدية سيدي عاتي و سطح المنصورة ، و في نفس الوقت تحركت القوات القادمة من جيجل و القل و ميلة و سكيكدة ، نحو المواقع الفرنسية ، فأصبح العدو بين نارين من المدينة و من خلفهم.(110)

و كان رد هيئة أركان العدو سريعا، فعينت الجنرال " فالي" Valée قائدا عاما للقوات الفرنسية خلفا لدي مريمون،و هو قائد المدفعية الذي كان في رصيده نحو 40 عملية حصار في صفوف الجيش النابوليوني ، يعد من اقدر قادة المدفعية في أوروبا.

أدرك هذا الأخير أن إمهال الجنود ، و إعطائهم فترة استراحة، سوف تكون لها نتائج وخيمة،و لهذا بادر مباشرة الى دك أسوار المدينة، بقذائف المدفعية من عيار 24،حتى تمكن من إحداث ثغرة في السور و في نفس الليلة قرر الاقتحام بطوابيره المعدة لذلك،فشكل لهذا الغرض ثلاثة طوابير،و اختار عناصرها من أحسن الفيالق،و كلفهم بالهجوم ، أسندت قيادة الطابور الاول و هو متكون من فرقة زواوة.[111] تحت قيادة الكولونيل "لاموريسيار" ، بينما كان الطابور الثاني من نصيب الكولونيل كامبCambs و معه الضابط " بودو" Bedeau الذي كان يقود رجال اللفيف الاجنبي ، و بمساعدة النقيب "سانت آرنو"، و يقود كليكر Clerc الفرقة الأخرى ، فصار مجموع الجنود المهاجمين دفعة واحدة يزيد عن 1200 جندي ، فضلا عن فرقة الاحتياط التي يزيد عددها عن 400 جندي ، بينما تمركزت بقية قوات العدو في مواقع أخرى حول المدينة مستعدة للهجوم.[112]في نصف دائرة من كدية سيدي عاتي الى باردو و الأقواس الرومانية،و منها الى سيدي مبروك و سطح المنصورة.و كانت قوات احمد باي هي الأخرى خلف الخطوط تحاصر هذه المواقع بجيش قوامة 15000 فارس.

و لهذا رأى الجنرال فالي ، أن المخرج الوحيد هو اقتحام المدينة بكل سرعة و التمركز فيها ، لان جيشه أنهكته المعارك ، و أصبح مهددا بقلة التموين و التغذية التي حال احمد باي دون وصولها ، و ليس بإمكانه العودة الى " مجاز عمار" ، لان الانسحاب في نظره سوف يجلب له مجزرة كبيرة و بالتالي اللجوء الى داخل أسوار المدينة تكون الملجأ المفيد لقواته ، و لهذا أمر بتقريب "بطارية الاقتحام" نحو الأسوار لرفع فعاليتها ، و تمكن من الوصول بها الى مكان

لا يبعد عن سور المدينة الا بنحو 160 متر ، ثم أمر بشن ضربات تدميرية مركزة الى الأبواب و الأسوار ، فأحدث ثغرة في الجهة اليسرى لباب الوادي ، و استطاع عدد من جنود الهندسة العسكرية الوصول إليها ، فوجدوا اتساعها لا يقل عن 10 امتار ، يمكن الدخول منها،و لم تقف البطاريات عن القصف نهارا و السكان يقومون بالترميم ليلا ،الاّ ان التذمير كان أكثر من الترميم ، و لهذا قرر الجنرال فالي ، الهجوم يوم 13 اكتوبر 1837 على الساعة السابعة صباحا ، على أسوار المدينة بأكثر من 1200 جندي ، فضلا عن الطابور الثلث المتكون من 400 جندي للاحتياط الذي يقوده العقيد " كوربا " كما أسلفنا، فسكتت اصوات المدافع لفتح المجال للهجوم ، و جاء الطابور الثاني عن طريق "عوينة الفول" قوامه 800 جندي على رأسهم العقيد كامب Cambs أما الطابور الأول ، فكان مكانه قرب بطارية الاقتحام التي لا تبعد الاّ بنحو 160 متر عن سور المدينة ، و كان تعداده 700 مقاتل بقيادة " لامورسيار"[113].

و كانت مهمة الطوابير هي اقتحام اسوار المدينة و اجتياحها بكل الطرق، فوصل الطابور الاول و الثاني الى الثغرة و الشرخ الذي احدثته المدفعية في الجهة اليسرى من باب الوادي ، و الطابور الثالث موجه الى باب الجابية للدخول منها ، بينما ظلت القوات الفرنسية في مواقعها بكدية سيدي عاتي و بسطح المنصورة ، تنتظر الاقتحام و تتصدى لفرسان احمد باي ، في حالة تدخله لمساعدة المحاصرين.[114]

انتشر خبر الهجوم الكاسح بين سكان المدينة ، فقام المؤذنون من أعلى المآذن بدعوة السكان الى الصمود و الجهاد ، و توجه كبار الاعيان و القادة و رؤساء

القوم الى المسجد الكبير لأداء القسم للجهاد و عدم الاستسلام حتى آخر رجل منهم ، و انخرط الجميع في القوات النظامية متطوعين للمقاومة بما فيهم النساء و الأطفال ، الاّ أن هذا الحماس و هذه الشجاعة و البطولة اصطدمت بعدم وجود الأسلحة الكافية ، و الحقيقة ان ابن عيسى هو الذي يملك مفاتيح خزائن الذخيرة و البنادق فطالبه الأعيان بالسلاح ، الاّ انه و لأسباب مجهولة لم يستجب الى مطالبهم ، في مثل هذه الظروف الحرجة و العدو على الأبواب يتربص بالسكان و المدينة . و السؤال المحير الذي بقي مطروحا ، هل كان ابن عيسى متخوفا من تسليم السلاح للسكان ؟ و هل يوجد من بين هؤلاء خصوما للباي ؟ أم أن الثقة في النفس و في جنوده المقدر عددهم بنحو 5000 مقاتل يمكنهم التصدي للعدو و ردعه.[115]

و يبدو أن ابن عيسى قد اخطأ التقدير أو انه عبد مأمور لم يتلق الموافقة من الحاج احمد باي الذي يوجد خارج المدينة ، و الظاهر أن احمد باي كان خوفه من منافسيه و معارضيه أكثر من خوفه من العدو الفرنسي ،كما أشار ابن عيسى ذاته ، و مهما يكن فان هذا التصرف جلب الويلات لمدينة قسنطينة و أهلها ، بسبب التعنث أو سوء التقدير ، فتغير ميزان الملحمة (المعركة) لصالح العدو ، بالرغم من مشاركة اهل البلد فيها بالسلاح الأبيض و بما وجدوه أمامهم بل حتى بالصدور العارية.[116]

ملحمة يوم الجمعة 13 أكتوبر 1837:

انطلق الهجوم على الساعة السابعة صباحا -كما اشرنا — فتقدم الطابور الأول بقيادة لامورسيار و تحت قيادته مجموعة زواوة ، نحو الثغرة المستحدثة ، و عند وصولها وجدوا تحصينا دفاعيا ثانيا ، و في هذا الشأن يذكر سانت آرنو: **"كانت كل الجدران و كل الديار و كل النوافذ و السطوح ، كانت مغطاة بالعمائم** (المقاومون) ، **لقد انتصب أمام أعيننا جدار من نار ، كان الفرنسيون يتساقطون ، لكنهم لم يتقهقروا ..."**[117].

و توجهت فرقة من جنود الهندسة المكلفة بتفجير المتاريس و الحواجز و الأسوار نحو ثغرة السور ، و كانوا يحملون معهم السلاليم و الفؤوس و الحبال و أكياس البارود ، و في هذه الأثناء قام حماة قسنطينة ، بهدم جزء من الجدار الحصين ، فانهار على الضابط دوسيرينيي De Serigny و على 40 من جنوده التابعين للفصيلة الخفيفة الثانية ، غير أن هذه العملية القسنطينية الناجحة التي أودت بحياة فصيلة كاملة تقريبا من العدو ، لم تفد كثيرا لأن انقاض الجدار المهدم ، تسبب في ردم الخندق الذي حفره "ابن عيسى" الفاصل بين السور و المدينة ، فتمكن جنود العدو ، من اقتحامه و المرور فوقه ، و الدخول الى إحدى أزقة المدينة[118]. و كان ابن عيسى و جنوده يحاولون التصدي لهم و منعهم من دخول المدينة في معركة شرسة ، و على الرغم من هذه المقاومة العنيفة و العنيدة التي لم يحدث مثلها في تاريخ الاحتلال الفرنسي بشهادة سانت آرنو.[119]، تمكن جنود العدو من اقتحام المدينة،و بعدها بعشر دقائق أصدر الجنرال أوامر للطابور الثاني بالتحرك للاقتحام و اجتياز الأسوار و التركيز المكثف على قصفها ثم الهجوم عليها بأعداد كبيرة ، فاضطر المقاومون ان ينسحبوا الى الخط الدفاعي الثاني [120]. فتقدم جنود العدو في غير هدى الى أزقة المدينة المنعرجة ، فقابلهم جنود ابن عيسى و المقاومون بوابل من النار من

البيوت و النوافذ و الأسطح و المساجد ، و الدكاكين و من متاريس المنعرجات ، و تحولت المعركة الى حرب شوارع طاحنة ، حيث وجد العدو نفسه في بلبلة و ارتباك من شدة طلقات الرصاص و كثافتها ، و قد حاول العقيد لامورسيار لم شمل صفوف شتات رجاله ، و في هذه اللحظة حدث انفجار و دوي كبير تحت أقدام العدو ، لم يعرفوا مصدره ، نسف كل ما حوله و أباد ما يزيد عن 300 جندي فرنسي من بينهم العقيد "لامورسيار" الذي أصيب بجروح خطيرة حملوه متخن بالجراح و الحروق عمت وجهه و شعره ، بينما تم القضاء على من تبقى من نجا منهم بسيوف أهل قسنطينة و جنودها.(121)

و الظاهر أن الانفجار وقع بسبب الألغام التي أمر احمد باي بزرعها للعدو غير أن تفجيرها لم يخضع لجنود متخصصين في هذا النوع من السلاح و هو ما جعل احمد باي يتحسر لفقدان جيشه لهذا التخصص.(122)

فكانت مجزرة حقيقية تعرض لها جنود العدو ، و لم يمنع منها بعض القسنطينيين و قد وصف النقيب سانت آرنو هذا الحدث بقوله :"**كان أولئك الرجال التعساء الذين بقيت أعضاؤهم سليمة ، و تمكنوا من انتشال أنفسهم من بين الأنقاض يهرعون نحو سرية المدفعية ، و ينزلون من الثغرة و هم يصرخون ، أهربوا يا رفاق لقد أهلكنا كلنا ، كل شيء هنا ملغم ، لا تتقدموا اهربوا ... فكانت الوجوه شوهتها الحروق ، و تلك الرؤوس التي احترق شعرها و هي تنزف دما و تلك الثياب الممزقة و المتساقطة إربا مع قطع الجلود...**".

و كان الكولونيل كامب Combs و الضابط " بودو "Bedeau في أعلى الموقع يحاولون تهدئة الجنود الفارين و إعادتهم الى مواقعهم ، لكن بدون جدوى لان الانفجار كان دويه عنيفا وصل الى مسامع هيئة الأركان الفرنسية و الى الحاج احمد باي و فرسانه ، الذين عبروا عن فرحهم بالتكبير و التهليل، غير أن هذه الفرحة لم تطل كثيرا ، لان الانفجار غير مسار المعركة ، في حد ذاتها بحيث صد هجمات المقاومين و جنود ابن عيسى ، و إحداث فتحة أخرى في السور الدفاعي الثاني ، و تمكن جنود العدو بقيادة " سانت آرنو" من الوصول إليها و الدخول الى زقاق آخر ضيق وجدوا فيه فرقة من فرق القناصة التابعة لهم ، لكنهم اصطدموا جميعا بإحدى المتارس القوية ، و تعرضوا لنيران أهل المدينة ، فأربكوهم و افقدوهم توازنهم ، فداسوا بأرجلهم جثت جنودهم و من بينهم جثة نقيب الهندسة العسكرية ،فاختلط الحابل بالنابل و تعالت صيحات جنود العدو ، حتى لم يكن احد يسمع الآخر[123].

و لما بلغ جنود العدو حيا تجاريا واسعا في المدينة أصبح لزاما عليهم أن يقتحموا الديار الواحدة تلو الأخرى ، تحت وابل من الرصاص ، و في ذلك يقول سانت آرنو : **"كنا نتقدم و أرجلنا غائصة ، الى مستوى الركبة وسط الجثت و الدماء كان الجنود يسقطون أرضا فلا يقومون بعد ذلك من جراء الجراح القاتلة."**[124]

و لم يتقدم العدو أكثر من 20 خطوة،حتى وجد النيران تنطلق من أمامه و شظايا المدافع تأتيهم من ثكنة بالمدينة بحي رحبة الجمال ، و من القصبة و قصر الباي احمد و دار ابن عيسى كلها محصنة بالمدافع و الجنود.[125]

و تصدى لهم السكان بالسيوف و الخناجر و بالأيدي،فالرصاص لا يسكت و الأرواح تتساقط ، و المعارك لا تهدأ فالتحموا في العديد من المرات بالسلاح الأبيض ، و كانت الشوارع مملوءة بجثث العدو و من شهداء المقاومة الشرسة حول الأسوار و البيوت و الأزقة و المتارس المهيأة و المدعمة بالمتطوعين و كان التجار و الحرفيين يقاومون على عتبات متاجرهم و سقط النساء و السلاح بأيديهن.[126]

فكان العدو يتقدم ببطء ، و رجاله يسقطون بنيران المقاومة و سيوفهم و استعمل رجال الهندسة العسكرية السلاليم و غيرها من أدوات الاقتحام ، حتى تمكنوا من الوصول الى ثكنة رحبة الجمال و في ذلك يقول الضابط سانت آرنو الذي كان يقود فرقته نحوها :"**يا للمذبحة كانت بقع الدم تغطي الدرج كنا نزرع الموت و نتجرعه بنفوس ملؤها اليأس و الألم من كثرة القتل و شدة المقاومة.**"[127] و لم يحاول المقاومون الفرار أو الانسحاب بل كان منهم من يقوم بتغيير المكان ليستغل فجوة في الجدار يصوب منها بندقيته نحو العدو فقتلوا الكثير من قواتهم حسب ماسبيرو.

و يصف سانت آرنو :" **لقد شاهدت هنا أمواتا كثيرين و حدقت النظر في تقاسيم وجوه المحتضرين و ما يشع فيها من تعبير أسطوري عن الأهوال**".[128]

لقد تم الاستلاء على الثكنة ، و خرج الجنود الى الزقاق ثانية ، حيث كان أهل المدينة يترصدونهم في المنعرجات و المنعطفات ، التي تتميز بها المدينة يواصلون حصد أرواح جنود العدو ، و لم يكد النقيب سانت آرنو ، يشد على

يد العقيد كامب Cambs و تقديم التحية له ، حتى أصابت هذا الأخير رصاصتان ، فكانتا السبب في وفاقه غداة ذلك اليوم.[129]

واصل جنود العدو التقدم وسط المدينة ، تحت وابل القذائف و كان يتقدمهم سانت آرنو الذي يحاول أن يرفع من الروح القتالية لجنوده فكان يردد بأعلى صوته : "**الى الأمام** " لكن عبثا لان الرصاص كان يوقف زحفهم و يجعلهم يتراجعون ، و سقط الكثير منهم قتلى في بركة من " **الأوحال و الدماء التي كانوا يخوضون فيها المعارك** "حتى الركبتين ، حسب تعبير سانت آرنو[130]. و قد وصف هذا الأخير نفسه بأن يداه كانتا ملطختين بالدماء "**و شفرة سيفه حمراء قانية فكان باختصار يبدو في هيئة جزار**"[131].

فبينما كانت المعارك الطاحنة تجرى من ناحية رحبة الجمال و الطابية و سوق الغزل ، تقدم الطابور الثالث برفقة جنود الهندسة العسكرية عبر مرتفعات باردو ، لاقتحام باب الجابية ، فقابلتهم نيران البنادق من فوق الأسوار و شرفات المنازل و سطوحها ، فقد تكررت مثل هذه المواقف الشجاعة و البطولة النادرة من سكان قسنطينة بقيادة ابن عيسى و محمد بلبجاوي داخل المدينة حتى سقطت باب الجابية ، عند ذلك توغل الطابور الثالث في شوارع السويقة و أزقتها ، فكانت مظاهر الصمود و التصدي الأسطورية النادرة و الجهاد في حي البطحاء و الأربعين شريف و حي سيدي عبد المومن و حي باب القنطرة و رحبة الصوف و غيرها. ثم تقدمت فصيلة أخرى للعدو نحو باب القنطرة لفتحه أمام القوات الفرنسية القادمة من سطح المنصورة تحت وابل من الرصاص الذي لم ينقطع حتى بعد سقوط المدينة.

و أمام هذا التوغل و الاجتياح لم ير ابن عيسى بدا من الانسحاب الى خارج المدينة ، و في ذلك يقول :" **لقد دافعنا على أنفسنا بشجاعة من حصن الى حصن الى أن أخذت المدينة عنوة ، تحت ضغط المدفعية ، و عندما كان علي أن اخرج مع أفراد قلائل من ذوي ، من فتحة بجهة القصبة و كان الخروج من هذا الممر شاقا للغاية ، بحيث كان الموت في انتظار كل النسوة اللائي حاولن الخروج بأطفالهن ، و تمكنت من الخروج بصعوبة و اللحاق بالحاج احمد باي بالجانب الآخر لوادي الرمل على رأس فرسانه"**(132).

أما محمد بلبجاوي نائب ابن عيسى في قيادة المعارك ، فقد قتل أثناء الحصار حسب ابن عيسى و أحمد باي(133). أو قد اثر الانتحار برصاصة في الرأس بعد أن يئس من الموت حسب بجاجة.(134) الذي لم يذكر المصدر الذي استقى منه هذه المعلومة .

اندفع الناس بعد الهزيمة ، نساء و رجالا و أطفالا ، نحو المنحدرات و لاسيما منحدر الطابية ، فارين من جنود العدو ، مستعملين الحبال للنزول الى وادي الرمال ، عبر الجروف ، مخاطرين بأنفسهم ، على أن يقعوا أسرى في أيدي العدو فتمزقت الحبال لكثرة من تعلقوا بها ، فسقط العديد منهم ضحايا الهاوية ، فتراكمت العديد من الجثث و الأشلاء في خوانق الرمال ، بينما تمكن البعض منهم من النزول للالتحاق بأحمد باي و فرسانه.(135)

سقــوط المدينة :

و قد تابع الجيش الفرنسي من كدية سيدي عاتي و من سطح المنصورة و من القصبة هؤلاء الفارين ، عبر المنحدرات الصعبة فاعتقدوا أن بالأمر خدعة حربية و تكتيكا عسكريا ، فأرسلوا طابورا من الخيالة الى جهة وادي الرمال ، للانقضاض عليهم و قتلهم ، فأتوا على من نجا من السقوط ، فزاد عدد الضحايا في الوقت الذي انتهت فيه حالة الحرب[136]. و في ذلك يقول ماسبيرو:" و **فيما وراء القصبة اطل النقيب سانت آرنو من فوق الأسوار المشرفة على شعاب وادي الرمال ، فشاهد أجسادا بشرية مهشمة على صخور الوادي إنها أجساد مئات النساء اللائي حاولن الفرار من المدينة مع أطفالهن فتقطعت الحبال التي تدلين بواسطتها الى أسفل الشعاب**"[137].

و عندما اقتحم العدو المدينة و عاث فيها فسادا ، و لم يكن من رجاء للسكان الذين بقوا فيها عند ذلك ، تقدم ابن شيخ المدينة يلوح بورقة (وثيقة) وجهها أعيان المدينة يعبرون فيها عن تسليم المدينة الى الجنرال فاليValée فدخلوها قسرا ، ثم توافد اليهود أيضا يشدون على أيدي ضباط العدو[138].

إنها ملحمة جهادية قدمها أهل قسنطينة قربانا للحرية و الوطن ، أظهر فيها المقاومون بطولة كبيرة و شجاعة نادرة و ثبات في القتال ليس له نظير بشهادة ضباط العدو ، الذين تلقوا خسائر كثيرة في الأرواح و المعدات فقد قتل القائد العام للجيش دي مريمون بالإضافة الجنرال بيريغو و الكولونيل كامب و العقيد لامورسيار ، و العديد من الضباط في هذه الملحمة القسنطينية التي دافع فيها أبناء المدينة الى ان تغلغل فيها العدو دربا بدرب و زنقة بزنقة و بيت ببيت و دار بدار.

و لعل الخطة التي وضعها الحاج احمد باي لا تصلح للمرحلة الثانية لان العدو تعرف عليها في المرحلة الاولى ، و بالتالي وضع لها كل الحسابات و خاصة عندما وصل الى قمة سيدي عاتي و سطح المنصورة ، و هي مواقع في حد ذاتها حصينة ، غرس فيها المدافع و البطاريات مما حد من فعاليات فرسان احمد باي و قواته ، فلم يكن له تأثير كبير على العدو من الخلف و لم يستطع فك الحصار عن المدينة و لاسيما و أن اغلب القوات التي تزيد عن 15000 من الفرسان و المشاة كانت معه ، خارج أسوار المدينة و لم يترك مع المقاومين إلا نحو 5000 مقاتل داخل المدينة ، فضلا عن انه لا يزال يطمع في مفاوضة العدو و يطمح الى الهدنة معه مقابل تركه على الايالة ، و قد عبر عن ذلك نائبه ابن عيسى بعد انتصاره في الحملة الأولى قائلا:" **لو أن الفرنسيين راسلونا وقتها و قالوا : إنكم ستبقون بالتأكيد في مناصبكم ، و ستحافظون على مراتبكم في ظل سلطتنا ، و ستكونون خدمة لنا كما كنتم تماما في العهد التركي لكنا قد سلمنا.** "[139]

فخروج احمد باي خارج المدينة بقواته الكبيرة و قيامه بتهريب ثرواته خفية من المدينة تجعل الدارس يشك في نواياه و عدم السماح للسكان بالعمل مثله بإبقاء ثرواتهم داخل المدينة أثناء الحصار ، و على مرأى من أصحابها ، هي التي جعلتهم أكثر تصميما على الدفاع عنها و القتال من اجلها ، و أكثر عزما لحماية أنفسهم و أموالهم و أولادهم و نسائهم ، و يجعلهم يتصورون النتيجة في حالة الهزيمة حسب تعبير ابن عيسى.[140]

و كانت الأيام الموالية لسقوط المدينة كئيبة و الحياة فيها تبدو مكدّرة و حزينة،فاليهود يتجولون عبر أزقتها زرافات و وحدانا ، ثم بدأت عملية النهب و الاغتصاب من قبل جنود الطوابير المختلفة ، بعد سكوت الرصاص و صوت المدافع،و لكن لا يوجد شيء يمكن ثني العدو عن النهب و السلب و المصادرة و الغصب،بدأه الجنود البسطاء ثم التحق بهم الضباط ، و استمرت هذه الأعمال ثلاثة أيام كاملة دفع فيها المدنيون ثمنا غاليا و خاصة النساء لا أحد تحدث عن الاغتصاب الاّ القليل القليل و لكن في مثل هذه الظروف من المؤكد أن النساء عشن الويلات ، و هي عملية سهلة و مربحة للغاية لان أثرياء المدينة الذين فروا من مساكنهم و تركوا ممتلكاتهم في بيوتهم ، و لم يبق في المدينة الاّ السكان الذين لم يتمكنوا من الفرار و الأتراك و بعض القبائل و طائفة من المحاربين و فئة من اليهود و المسنون و المساكين[141].

و يشير الدكتور سديو Sedillot الى هذه الأعمال الفضيحة بقوله :"**كان الفرنسيون ينهبون متاع الناس و يسلبونهم من غير تمييز بين الشيوخ المسنين أو الأطفال،و عندما يستولون على احد المنازل ، فإنهم يدمغون بابه (بجواز مرور) ثم يحكمون غلقه من الداخل و يختبئون داخل المنزل، و يكسرون أقفال الصناديق،و لا يتركون متاعا الا و يفتشونه ، ثم يشرعون بهدوء تام في حمل ما يروق لهم.**" [142] و قد وصل بهم الأمر الى حمل هذه الأشياء و الأمتعة و أقاموا بها نوعا من الأسواق الخاصة ، يبيعون فيها هذه الأسلاب ، و يتبادلون ببعضها،و قد تبيّن فيما بعد أن أوفر الغنائم و الأساليب و أغلاها ثمنا كانت من نصيب قيادة الجيش و ضباط الأركان.[143]

فقد استولى الجنود على كل شيء ، بحيث سكن الضباط في المنازل الفخمة و أقام الجنود في بقية الدور و البيوت ، و يذكر سانت آرنو و هو أحد الشهود انه " **لن يتوسع أكثر في وصف مشاهد النهب و الفوضى العارمة التي دامت ثلاثة أيام ، فلنلق عليها دثار النسيان كي لا نشوه صورة أمجادنا**."[144]

ثم قام جيش العدو بتجنيد اليهود قسرا للقيام بأعمال تطهير المدينة و تنظيفها ، و جمع جثث القتلى ، و دفنها في حفرة كبيرة ، فقد تجاوز عدد القتلى جميع التوقعات ، بحيث لم تسعهم الحفر الكبيرة التي هيئت لدفنهم ، غير أن " سانت آرنو" يذكر عددهم بنحو 150 [145]، و الظاهر أن عدد القتلى في صفوفهم كان أكبر بكثير حسب مسبيرو ، و خاصة و أن وباء الكوليرا و مرض الحمى قد انتشر،فمن المؤكد أن الحرب و المرض و الوباء يكون قد حصد ما يزيد عن ثلاثة آلاف جندي منهم.[146]

و كانت أحوال اليهود بئيسة تبدو عليها المهانة و الخنوع ، بينما أهل قسنطينة الباقين في المدينة فكانوا حزينين و بائسين لما جرى لهم و لبلادهم، فكانوا يكظمون الغيظ بما لم يكن يسعهم ، و أن يحولوا دون وقوعه ، بالوضع الذي أجبروا عليه ، فكيف يصفحوا أو يتسامحوا عن الخراب و الدمار الذي حل بهم و بديارهم،و كيف ينسوا شهداءهم و الدماء التي سالت من جثث أقربائهم و فلذات أكبادهم،و كيف يرضوا بالإفلاس الذي أصابهم و حل بهم.[147]

و قد أعجب فالي بصمود قسنطينة و بقائدهم ابن عيسى قائلا :"**اظهر مهارة و شجاعة نادرتين في دفاعه عن مدينة قسنطينة**."[148] و انه أي ابن عيسى " **رجل يتمتع بتفوق حقيقي**"[148].

و يقول سانت آرنو عن مقاومة السكان:" **لقد نلت شرف المساهمة في الهجوم على قسنطينة ، و لكن لا مناص من التنويه بالمقاومة التي أبداها أهل المدينة ،و لا يمكن تصور ما أصابنا انه أسوأ ما في الدنيا من أهوال و من مشاهد مروعة ، و هذا هو رأي محاربي الجيش الإمبراطوري القدماء ، أن المقاومة الشرسة التي واجهتنا تستحق التنويه.**"(149)

إنها شهادة من عدو و مقاتل و قائد في شوارع مدينة قسنطينة و أزقتها توضح ما بدله الأجداد من مقاومة و تصدي اعترف بها العدو ذاته .

و في يوم 29 أكتوبر 1837م أخذت فيالق الجيش الفرنسي تغادر مدينة قسنطينة الى مسرح آخر يقاتل فيه أبناء بلدنا ، و تركوا فيها حامية تتكون من ثلاثة آلاف رجل لحراستها.(150)

أما احمد باي فقد نظر نظرته الأخيرة الى بيوت الصخر العتيق و شد رحيله نحو الجنوب بفرنسانه و دخائره التي أخذها معه في حسرة كبيرة على أمل الرجوع إليها.

و عن احتلال قسنطينة قال احد الشعراء:

لقد تفحم قلبي بشعـــلة لهيب مستعر.

حين أستولى المسيحيون على قسنطينة.

يا لحر فؤادي انهم يهدمون المســـاجد.

فأين توارى المؤمن الذي يعدل عشرة رجال؟

و الذي يمـــــد ذراعـــــه للثـــأر.

و يستل حد السيف و يمتشق الحسام.

و يفجر الرعــــود و يلقم البنادق.

الهـــــــامش :

1) فرنسوا مسيرو : سانت آرنو او الشرف الضائع ، دار القصبة للنشر الجزائر ص 314.
2) فرنسوا مسيرو : المرجع السابق ص 314.
3) نفسه ص 314.
4) نفسه ص 315.
5) نفسه ص 315.
6) نفسه ص 314.
7) مذكرات احمد باي ص 11 .
8) نفسه ص 11.
9) حمدان خوجة : المرآة ص 140-150.
10) نفسه ص 150.
11) مذكرات احمد باي : المرجع السابق ص 15 و عن تحضير ابراهيم آغا لمواجهة الحملة انظر المرآة ص 157-171.
12) نفسه ص 15.
13) نفسه ص 16.
14) نفسه ص 16-17.
15) مذكرات احمد باي ص 19-20.
16) نفسه ص 20-23.
17) حمدان خوجةالمرآة ص 192 ، ينحدر يوسف المملوك من يهود ايطاليا ، دخل الاسلام و سمي بيوسف ، ثم جاء الى تونس ، حيث اشتغل مع باي الايالة ، ارتكب عدة جرائم مع رفيق له بتونس و هرب الى الفرنسيين في عنابة و عرض عليهم خدماته ، ثم انخرط في جيشهم و ارتد عن الاسلام ، انظر حمدان خوجة ص 192، مذكرات احمد باي ص 28. 17 م) انظر عبد الحميد زوزو : محطات في تاريخ الجزائر ، دار هومة ص 111-112 هــ/4.
18) احمد باي ص 30.
19) نفسه ص 46.
20) احمد باي ص 46.
21) جمال قنان : نصوص سياسية جزائرية ص 83.
22) جمال قنان : المرجع السابق ص 78.

23) نفسه ص 78.
24) نفسه ص 78.
25) نفسه ص 79.
26) قنان المرجع السابق ص 79.
27) نفسه ص 79.
28) نفسه ص 79.
29) احمد باي : المرجع السابق ص 46.
30) نفسه ص 46.
31) نفسه ص 47.
32) مذكرات احمد باي : المرجع السابق ص 46 ، بجاجة معركة قسنطينة ص 9.
33) نفسه ص 47.
34) فرنسوا مسبيرو : المرجع السابق ص95 ، اسس يوسف المملوك اول فرقة من الخيالة تعرف بفرقة " السبايس" نفسه ص95.
35) مسبيرو : المرجع السابق ص 96.
36) نفسه ص 96.
37) يعد الملك لويس فيليب هو آخر ملوك فرنسا له اربعة اولاد من كبار قادة جيش الاحتلال و هم :" الدوق اومال " و الدوق نمور "و" الدوق جوانفيل" و الدوق أورليان و قد اصبح الدوق اومال حاكما على مدينة قسنطينة انظر شعيب ام الحواضر ص 289.
38) مسبيرو : المرجع السابق ص 96.
39) بجاجة :المرجع السابق ص 11.
40) مذكرات احمد باي ص 47-48.
41) نفسه ص 48.
42) نفسه ص47.
43) عقبة الاشعري هي بلدة بونوارة حاليا و ليس موقعها بين الحامة و قسنطينة كما ذكر محقق مذكرات احمد باي انظر بجاجة ص 11 احمد باي ص 47 هـ34.
44) بجاجة ص 12.
45) مذكرات احمد باي ص 47.
46) بجاجة ص 15.
47) نفسه ص15.
48) بجاجة ص 16.
49) نفسه 16.
50) مذكرات احمد باي ص 50.

51) نفسه ص50.

51م) عبد الحميد زوزو : المرجع السابق ص 115 انظر ايضا . ا E.Watbled:cirta,Constantine Expédition et prise de constantine (1836-1837) d'après les documents laissés par Berburgger , mobiliére et latour du pin in R.A.T14P319

52) بجاجة ص16.

53) مذكرات احمد باي ص 51.

54) نفسه ص 51.

55) نفسه ص 51.

56) نفسه ص54.

57) نفسه ص 54.

58) مذكرات احمد باي ص 53 ، بجاجة ص17.

59) بجاجة ص 17.

60) نفسه ص 18.

61) نفسه ص18.

62) بجاجة ص 19.

63) نفسه ص 19.

64) نفسه ص 22.

65) نفسه ص 22.

66) بجاجة ص 22.

67) مسبيرو : المرجع السابق ص 96 بذكر بجاجة عدد خسائر الجيش الفرنسي ما بين 700 و 900 قتيل ص 22 ، عبد العزيز فيلالي : العلاقات السياسية ص 95.

68) مذكرات احمد باي ص 54.

69) نفسه ص 53.

70) نفسه ص 53.

71) نفسه ص 53.

71م) عبد الحميد زوزو : محطات في تاريخ الجزائر دار هومة ص 112.

72) سانت آرنو ص 96.

73) نفسه ص 96.

74) مذكرات احمد باي ص 96.

74م) عبد الحميد زوزو : المرجع السابق ص 116.

75) نفسه ص 55.

76) نفسه ص 56. (76م)

عبد الحميد زوزو : المرجع السابق ص 117.

77) نفسه ص 60.

78) مذكرات احمد باي ص 61.

79) نفسه ص 63.

80) نفسه ص 69.

81) مذكرات احمد باي ص 69.

82) نفسه ص 69.

83) مسبيرو المرجع السابق ص 102.

84) نفسه ص 103.

85) نفسه ص 103-104.

86) مسبيرو : المرجع السابق ص 104.

87) بجاجة المرجع السابق ص 24.

88) نفسه ص 24 و نشير هنا بان القوات افرنسية قامت بتحطيم الاثار الرومانية في قالمة و ضواحيها ، و استخدمت الحجارات المصقولة في بناء الحصون و الثكنات و المخازن و المستشفيات .

89) محمد المهدي بن علي الشغيب : ام الحواضر ص 285.

90) محمد المهدي بن شغيب المرجع السابق ص 285هـ/1.

91) نفسه ص 285.

92) مسبيرو : المرجع السابق ص 109 ، يشير بجاجة الى ان عدد جيش العدو لا يتعدى ثلاثة عشر ألف جنديا انظر ص 26.

93) مسبيرو ، ص 109-110 بجاجة ص 26.

94) بجاجة ص 26-27.

95) مسبيرو ص120.

96) نفسه ص109.

97) نفسه ص 109.

98) مسبيرو ص 110.

99) نفسه ص110.

100) بجاجة ص 29 مسبيرو ص 110.

101) مسبيرو ص 110.

102) بجاجة ص 29.

103) نفسه ص 30 ، يقع باب الوادي عند البريد المركزي الحالي ، و بطارية الاقتحام وصلت الى المكان الذي توجد فيه دار الثقافة العيد آل خليفة حاليا ، نفسه ص 30.

104) نفسه ص 30.

105) نفسه ص 30.

106) بجاجة ص 30.

107) نفسه ص 33.

108) هو المكان الذي يوجد فيه ملعب بن عبد المالك حاليا ،تعرف اليوم بساحة العقيد عميروش، بجاجة ص 33

109) بجاجة ص 34.

110) نفسه ص 34.

111) ماسبيرو ص 111.

112) نفسه ص 111.

113) مسبيرو : المرجع السابق ص 111 يذكر بجاجة بان عدد جنود فرق الهجوم تزيد عن 2500 مقاتل ، انظر ص 35.

114) بجاجة ص 36.

115) بجاجة ص 36.

116) نفسه ص 36.

117) مسبيرو ص 111.

118) نفسه ص 111.

119) مسبيرو : المرجع السابق ص 111.

120) نفسه ص 111.

121) نفسه ص 111-112 ، بجاجة ص 37.

122) مذكرات احمد باي ص75 .

123) مسبيرو ص 112.

124) نفسه ص 113.

125) بجاجة ص 40.

126) نفسه ص 40.

127) مسبيرو ص 113.

128) مسبيرو ص 113.

129) نفسه ص 113.

130) نفسه ص114.

131) نفسه ص114.

132) عبد الحميد زوزو : المرجع السابق ص 118.

133) عبد الحميد زوزو : المرجع السابق ص 117 – مذكرات احمد باي ص 75 .

134) بجاجة ص 41.

135) نفسه ص 41.

136) مسبيرو المرجع السابق ص 115 ، مذكرات احمد باي ص 74.

137) نفسه ص115.

138) نفسه ص 114. لما رأى أهل المدينة قوة دفاعهم قد انهار لجأوا الى شيخ المدينة شيخ الاسلام محمد بن عبد الكريم بن بدر الدين الفكون لاستشارته فيما ينبغي عمله ،فأشار عليهم بالاستسلام و طلب الأمان و أعطاهم رسالة لقادة العدو و كان عمره آنذاك 80 سنة،و قد ألغي الفرنسيون وظيفة شيخ الاسلام في الجزائر و قسنطينة بعد احتلالها سنة 1837هــ و بالتالي اصبحت الجزائر بدون مرجعية دينية كبيرة و أصبح الامام في المسجد هو المفتي يخضع للسلطة الفرنسية. أبو القاسم سعد الله المرجع السابق ص 351. انظر أم الحواضر ص 437.

139) عبد الحميد زوزو : المرجع السابق ص 114 انظر :

- Note sur la position politique de Bey de Constantine (1837) archives vincenné H.226

-G.yver.Constantine du Maredrol valée T.296 Note .N:1.

140) عبد الحميد زوزو : المرجع السابق ص 116.

141) مسبيرو ص 115.

142) نفسه ص 119.

143) نفسه ص 119.

144) نفسه ص 115.

145) نفسه ص 116.قام الجيش بحفر عدة حفر عميقة و واسعة في الموقع الذي يقع بالسوق المركزية امام باب الوادي ، و دفنوا فيها كل فريق في الحفرة المخصصة له . أم الحواضر ص 438.

146) مسبيرو : ص 116 انظر مذكرات احمد باي ص 75 هــ5.

147) انظر مسبيرو ص 116.

148) عبد الحميد زوزو المرجع السابق ص 109.

149) مسبيرو : ص 110.

150) نفسه ص116.

الضميمة الأولى

تتضمن التجاوزات و الجرائم التي قام بها الجيش الفرنسي من تخريب و تقتيل و تدمير و اغتصاب للمقدسات و الممتلكات،و تشتمل على مطالب عديدة باسم الأمة الجزائرية ،قدمت للملك الفرنسي عن طريق رئيس الوزراء و البرلمان،حررها عثمان خوجة يوم 3 جوان 1833 [1]

---

[1] نقلا عن جمال قنان:نصوص سياسية جزائرية في القرن 19(1830-1914) صص 49-59.

12 ـ الشكوى التي رفعها كل من حمدان بن عمثان خوجة وابراهيم بن مصطفى باشا الى رئيس وزارة فرنسا[1]

الحمد لله:

حضرة الوزير الأعظم وفقه الله.

بعد التحية اللائقة والأدعية الفائقة، المعروض منا هو أن دخول الدولة الفرنسوية للجزائر، كان بشرط صيانة ديننا وحريمنا وأملاكنا وأموالنا واحترام مساجدنا وشريعتنا.

1 ــ أول ما وقع من المخالفة بعد نفي القاضي والمفتي بغير حق أن استولوا على أوقاف مكة والمدينة، وهي صدقة منا ومن والدينا على الفقراء بمقتضى الشرط بعد الموت على وفق ديننا. لا طريق لهم الى الاستيلاء عليها وأخذ ما كان عند الوكيل من النقود.

نطلب ردها كما كانت وان يردوا كل ما أخذوا من نقود كراء. وما سكنوا من ديارها وبساتينها، وبدون أجرة ولا تقدير. فيسلموا كل ذلك للوكيل على وفق ديننا المشترط صيانتة واحترامه.

(1) المصدر: عن التميمي عبد الجليل: «بحوث ووثائق في التاريخ المغربي 1816 ــ 1871» تونس 1972 ص،ص 146 ــ 165. أنظر الترجمة الفرنسية للوثيقة في كتاب حمدان بن عثمان خوجة «المرآة» بالفرنسية. المستند رقم 1 ص،ص 328 ــ 351.

2 ـــ الثاني: هدموا أملاكنا وأملاك الأوقاف، وأدعوا، ان الهدم لتوسيع الأزقة والعمل البلاصة. وكتب كلوزال وشهّر أن الكوفيرنو (الحاكم)، يعطي كراء المهدوم وقيمته، وعين كومسيون (لجنة)، كنت أنا واحدا منهم وأمرنا أن نقوم المهدم بالسعر الذي كان في مدة الترك، ثم أعطوا الكراء نحو الثمن مما قومنا في مدته، وتوالي الهدم الى يومنا هذا. فهدم نحو ثلث البلاد من أملاكنا. والى مدة مسيو بيشون، كانوا يقيدون ماهدموا. وفي مدة مسيو جنتيل دي بوسى صاروا يهدمون ولا يقيدون، كالمال المباح. فنطلب كراء ما هدموا، وقيمته سواء كان لنا أو كان أوقاف مكة والمدينة. أو من أوقاف المساجد.

ثم نحن قابلين بحكم الشرع، وذلك حيث أن أملاكنا كانت في مدة الترك سعر وفي هاته المدة بسعر زائد، فان كان حكم الشرع بأقل السعرين فلا محيص لناعنه وان حكم الشرع بأزيد السعرين أو بالتوسط فلا نرضى أن يضيع حقنا.

3 ـــ ثالثا: هدموا جامع السيدة وأخذوا سارياته وأبوابه الرخام وزلايجة وألواحه الأرز الذي يأتي من فاس وهو يقرب من لوح السرو. كما هدموا ثلاثة أو أربعة مساجد حوله صغيرة لأجل البلاصة.

أما أولا: فان البلاصة ليست مذكورة في الشروط حتى يهدم بها المشترط صيانته وثانيها: ليس في بلاد المسلمين بإفريقيا بلاصة، ثالثا: المضمون بالشرط إذا اقتضت المصلحة برغمهم، تعطى قيمته.

فنطلب ثمن ما هدموا من الجوامع والمساجد وثمن ما أخذوه من الآته ونقضة لأن المساجد للمسلمين كل واحد منهم له فيها حق لا خصوصية لسلطات ولا قاضي ولا مفتي كالملك المشترك لا يأخذ منه أحد شيئا. ولا عبرة بإذن الحاكم بل أذنه مردود عليه لأنه لا يختص بزمان، بل لمن سيوجد الى يوم الدين. وكل مسلم له حق المطالبة بما أخذ منها.

4 ــ رابعا: أخذوا جوا معنا ومساجدنا، ولم يبق بيد المسلمين إلا أربع جوامع وعدة مساجد صغار. ونحو ثلاث أرباعها أخذوه وسكنوها واكتروها للتجارة.

فنطلب ردّ جميعها بحكم الشرط. ونطلب ترميم ما أفسدوه، وثمن ما أخذوه من سوائرها وألواحها لأنه لا يجوز للمسلم أن ينتفع بالمساجد بغير الصلاة وأوقات التدريس، وان خربت وان تعطلت، هذا ديننا.

5 ــ والخامس: أخذوا جامع كجوّة وصيروه كنيسة وهو أحد جوامعنا ومشيد بما لا مزيد عليه. فنطلب رده لما ذكرنا ولأن الدولة الفرنسوية لا تعجز عن بناء أمثاله، حتى تنفر القلوب وتغير أمر الدين وتخالف الشروط.

6 ــ والسادس: أخذوا زاويات وهي بيوت مبنية وقفا على فقراء المسلمين يسكنونها بدون كراء في شرط المحبس كما سبق، ولكل فقير فيها حق. كما لكل غني إذا افتقر. هذا ديننا ولاوجه لأخذها. فنطلب ردها وردما أخذوه من كرائها، فنعطيه للفقراء الذين أخرجوهم منها بدون مهلة، كل واحد بفراشه على ظهره.

7 ــ والسابع: بيوت الخلا، مياه جارية وقف على المسلمين، وعلى من أراد قضاء حاجته، ويتوضون منها. أخذوها واكتروها. وهي من جملة أوقافنا، حتى لا ينجس الناس الأزقة. لآوجه لأخذها ولكل واحد فيها حق. وسامحني في سوء الأدب بذكرها لأنهم لم يستحيو بأخذها وكرائها للتجار، فكيف نستحي بطلبها.

فنطلب ردها وردما أخذوه من كرائها نفرقه على الفقراء في مقابلة أنها وقف لاجل الثواب.

8 ــ والثامن: مقتضى ديننا وسياستنا، احترام الأولياء واحترام تربتهم حتى أن من هرب الى تربة ولي، ولو كان عليه قصاص شرعي لا نخرجه من التربة بل نترصد خروجه بنفسه احتراما لذلك الولي وتعظيما لمن أطاع اليه، فهي بمنزلة الجوامع في الاحترام، واشتراك الناس في زيارتها والاحتماء بها. ولكم ما يقرب من ذلك في الكنايس، فأخذوا منها مواضع عديدة داخل البلاد وخارجها. فمنها ما هو مسكن لهم ومنها ما هو مستأجر للتجار وكتبوا لنا من الجزائر انهم أخذوا بعد سفري، تربة سيدي الجودي وأكتروه بماية فرنك. كيف يلوثون اسم دولتهم بماية فرنك وليست من أملاك البايلك، فأي طريق لهم لأخذها.

فنطلب ردها كما كانت وترميم ما أفسدوه واعطاء ما أخذوه في كرائها نتصدق به على ذلك الولي لمن له أهلية لقبول الصدقة.

9 ــ والتاسع: أخذوا بساطات جوامعنا، افترشوها في ديارهم. وآخر من أخذ مسيو برندات؛ دخل جامعنا بدون رضائنا واختار البساطات بنفسه وأخذها، واختار قناديل وثريات رفعها ووجد منبر رخام كنا أتينا به من جامع السيدة المهدوم فرفعه فافترشوا البساطات بديارهم وأوقدوا الثريات في جمعياتهم.

فنطلب رد المنبر والقناديل والثريات، أو قيمتها أن عدمت وقيمة البساطات لأنهم وطئوها بنعالهم فلا تجوز الصلاة عليها. وهي كالجوامع وقف لا ينتفع بها في ديننا في غير الجوامع. ولكل مسلم فيها حق، ولا ينفذ عطاء من أعطاها ولو كان أميرا أو قاضيا.

10 ــ والعاشر: أخذوا أملاك الترك المتزوجين من بناتنا بعد أن نفوهم بغير حق بل بمجرد الدعوى. وسافر بعضهم بلا نفي. نحن لا نرضى أن يضيع حق بناتنا وأولادهم لأن مئاله اليهم. وما زوجناهم لبناتنا

إلا لأجل عقارهم وماهم[1]. ولم يكن في شروط الصلح الا تسليم القصبة والأبراج وما يتبعها من أملاك البايلك، أما سائر الأملاك فانها مضمونة.

فنطلب ردها الينا بجميع كرائها لمصروف بناتنا الباقين عندنا بلا أزواج، ونرسل لمن سافروا مع أزواجهم. ونطلب كرائها وكراء ما سكنوه منها بتقويم المقومين.

11 ــ والحادي عشر: لنا ولغيرنا أملاك وأوقاف مسكونة للعساكر وللجنرالات ونحوهم، حتى للأطباء وأمثالهم، لم يعطوا كرائها ولا قوموها. وبساتين كذلك، قطعوا أشجارها وقلعوا سقوفها وأبوابها فأحرقوها حطبا.

فنطلب كرائها وثمن ما أفسدوه منها بتقويم المقومين.

12 ــ والثاني عشر: انهم عملوا طرقا لطلوع الكراريط للمواضع العالية أخذوا بها يمينا ويسارا فدخلوا بأكثرها بساتيننا وجعلوها طريقا عريضة، وأفسدوا ما حولها من الأشجار وبناء نحن لا نستخدم الكراريط.

فنطلب ثمن التراب الذي أخذوه، والشجر والبناء الذي أفسدوه كما هو مقرر في كل الأوروبا ولكون نسائنا يحتجبن، نكره البستان المكشوف فنطلب الفرق الذي نشقه الطريق والذي لا تشقه.

13 ــ والثالث عشر: من يوم دخول الفرنسويين للجزائر الى يوم
ـذا، لم يزالوا يحفرون مقابر أبائنا وأجدادنا يستخرجون الآجر والأحجا
بنون بها وعظام موتانا يبعونها نترسل الى مرسيليه بالمراكب ومسيو بيشو
مل تاويلا لعدم بيعها وبعزله بطل. وعينوا لنا لدفن موتانا موضعا مع كو
يكفينا شرعوا في حفر مقابرنا فيه.

(1) صياغة هذه الجملة في النسخة الفرنسية تختلف بعض الشيء عن صياغتها العربية وهي كالآتي «وعندما زوجنا بناتنا بهؤلاء الاتراك كانت لهم أملاك، ولم نكن لنقبل تزويجهن بهم، بدو ذلك».

أما أرضها فأكثرها مملوك، وباقية وقف على الفقراء، وعلى من ليس له جبانة، المحبس لأكثرها اسمه بو قندورة. لكل واحد من المسلمين فيها حق، وقد اتلفوها بأن جعلوا بعضها بلاصة وبعضها بساتين باعوها أو أكتروها.

فنطلب رد ما أمكن رده منها، واعطاء ثمن ما لم يمكن رده بتقويم المقومين وأما عظام آبنائنا التي باعوها فنطلب ان يحكم الشرع العيسوي أو الموسوي أو المحمدي فيها، بما يسترضي ابن الحلال عن عظام آبائه وامهاته. كنا نرى رؤوس النساء بشعورهن والرجال بلحاهم فانظر مروئة الدولة الفرنسوية في جبر ما لا يمكن جبره.

14 ــ الرابع عشر: انهم التزموا ان يدخلوا ديار المسلمين ويروا نسائنا وحريمنا، ويقيدوا اسمائهن وأعمارهن أولادهن وصحتهن ومرضهن، فعينوا مسلما مع اليهود والفرنسويين، فشرعوا يدخلون دار دارا ونساؤنا يحتجبن بقدر الامكان. فربما يستعملون المروة في ديار نحو القاضي والمنسبال، فتعدي بعض خدام كران بريفو[1] الأدب، فغضب المسلم الذي معهم فلم يحضر بعد ذلك المسلمون وبقي اليهود والفرنسيون يدخلون الديار.

وهذا مع مخالفته للشروط، لا منفعة فيه لأنه لا يتم في مدة ستة أشهر وفي كل شهر يرتحل الناس من دار الى دار فرب أهل دار دخلوها يرتحلون الى دار لم يدخلوها بالعكس على حسب انقضاء مدة ما أكتروا وهم يعلمونه فتعين أن مُرادهم هتك حرمة المسلمين. ويدل عليه ما وقع لي بنفسي لما زوجت ابني قبل التاريخ بنحو ثلاثة أشهر.

استدعيت بحكم المروة «المروئة» زوجة الدوك وزوجة اتندان ميليتر وزوجه اتندان سفيل وذكرت لكل واحدة بحضرة زوجها أنه لا يمكن حضور الرجال حتى أنني ولو كنت أباه فلا أحضر. فأتين ليلا وقت العرس

(1) قائد الشرطة العسكرية.

ومعهن مسيو جنتي دي بوسي وفرنسوى آخر، فدخلن ودخلا معهن. فلما توسطا الدار تصايح النسوان فبادرا ليه ابني وأخرجه بالتكلف والدفع. ثم رجعا ووصلا الى قرب بيت العروس فتصايح النسوان فرجع اليه ابني وأخرجهما بعنف وصار الفرح حزنا.

فنطلب ان تمنع هذا الفعل الشنيع الذي تتحاشى الدولة الفرنسوية عن قبوله مهما علمته. وأما جزاء من فعله فموكول الى انصاف حضرتكم. وقد سمعنا أن مبدأ هذا الأمر انه وقع حكم بتفقد الأموال والمصوغ والنساء وغيره وبأن يقيدوا، ثم مهما أرادوا يعيدوا النظر مرة ومرات فيرون هل زاد أو نقص كيلا تصرفها أو تضيعها.

وحين عرضوا هذا الأمر على الحكام القانونيين، امتنعوا وقالوا لابد في مثل هذا من إذن الوزير فلم يوجد عندهم إذ نكم فأبطلوا. وبقي أمر تفقد النسا فاسأل عنه، الغالب انه كذلك.

15 ــ الخامس عشر: انهم نبهوا أن يعطوا أغنياء الناس قدرا من الدراهم ليشتروا بها الحنطة ويبيعونها في زمان الشتاء، فامتنع الناس وشكوا وكثر القيل والقال، فجبرونا وهددونا بالحبس فأعطينا جبرا، فان كان لأجل الثواب فلا يكون على أيدي الحكام، كيف الظالم يقطع الطريق ونحن ندفع المال.

فنطلب رد أموالنا ونرجوا العدل كي تتأمن الطرق وتأتي الحبوب من حيث كانت تأتي في مدة الترك منذ ثلا ثمائة عام. فكنا نشتريها رخيسة وترسل الى بلاد الأوروبا. والترك على ضعفهم بالنسبة للدولة الفرنسيوة يشترون الحبوب وقت الحاجة من خزائنهم ويبيعونها للفقراء برأس مالها ويؤمنون الطرق ثم بالسيف بعد السياسة والعدل.

16 ـــ والسادس عشر: ألزمونا أن ندفع عشرة صولدى[1] من كل دار كل شهر، وأخذوا تقديم ثلاثة أشهر. ثلاثين صولدي. وذكروا أن رجلا من ودان اسمه طوير الجنة خارج عن حكومة سلطان مراكش، كان حج واجتاز بالجزائر في رجعته، فاقاموه فوق مقامه وبالغوافي تكريمه، ولم يشاوروا أهل البلاد فادعوا أنهم صرفوا عليه ألف ومائتي فرنك وبمقابلة ذلك جعلوا هاته الغرامة.

أما كونه لا يلزمنا فظاهر، ولو كان يلزمنا فكوننا نبقي غرامين على طوير الجنة على الأبد،لا نقبله. وكوننا كل شهر نعطي أضعافه لا يجوز.

فنطلب ردما أخذوه وابطال هذا الظلم. ورد ثلاثين صولدي لكل دار لا يغنيهم إلا أنه فيه اظهار عدل الدولة الفرنسوية واعلام بأنها لم تسمح ذلك ومهما سمعت ترفع الظلم.

17 ـــ والسابع عشر: المرابطون في جميع نواحي الجزائر، أحياء وأموات محترمون كما سبق، وشأنهم إطعام الطعام واطفاء الفتنة وتأمين الطرق. وكان بالقليعة أهل زاوية مرابطين. ولما قصد البغاة الجزائر في مدة الدوك (الدوق دي رفيقو)، خرج من القليعة كل من أراد البغي والشقاق، وبقي المرابطون وضعفاء الناس. فلما قرب اليهم العسكر الفرنسوي خرجوا مترجلين بدون سلاح، مذعنين بالطاعة متبرئين عمن خرج من ناسهم وأتوابين يدي الجنرال فكان الواجب اكرامهم لأنهم لا قوة لهم حتى يمنعوا من خرج و لا وكالة لهم على أحد منهم. فحبسوا المرابطين والقاضي، والزموهم غرامة مليون فرنك، فباعوا أملاكهم ومواشيهم وحبوبهم حتى البذر فبلغ ذلك عشرة الاف فرنك دفعوها، وتخلد حبسهم اليوم ثمانية أشهر

(1) نصف فرنك.

هم محبوسين. وتحميلهم مليون بمنزلة تحميل حمار جبلا كبيرا. في كل دين لا تزروا وازرة أخرى. فمن ذلك اليوم تعطل مجيء الحبوب من واد جر التي كان يأتي منها معاش الجزائر ومتيجة، لأن هذا المرابط له حرت في واد جر فالطرق الغربية في مدة الكوميسون هو الذي كان يؤمنها وعن هذا غلت أسعار بلادنا منذ جبسو وصارت معايشنا تأتي من الأروبا فصارت أسعارنا أغلى من أسعار الأروبا وعنه لزمهم أن أخذوا منا ما ذكر في الظلم الخامس عشر.

فنطلب إطلاقهم، ثم العدل والمروئة تستعدي رد ما أخذ منهم، واسترضائهم لأجل صلاح حالنا وانتم مكلفون به.

18 — الثامن عشر: كتبوا خطوطا شهروها بان حضرة الوزير الكثيرة (الحرب) أمر أن يعطي الناس عقود أملاكهم للدومان حومة بعـ حومة. فأول حومة طلبوها من باب الواد الى دار الامارة، فأتى النا بعقودهم فبعد أيام، رد عقود خمسة ديار وبقي الباقي عنده أزيد من شهري فارتاع أهل البلاد وظنوا أن الدولة الفرنسوية تريد أخذ أملاكهم، حتى أن البعض التزم أن يبيع ملكه بأرخص ثمن وانظم الى ذلك أن السماسر من اليهود يخوفونهم.

نعلم جنابكم انكم أن أردتم إجراء قواعد الفرنسوية في عقودنا فـ نجد عقدا يبقى لصاحبه. وان التزمتم بحكم الشروط صيانة ديننا وأملاكنـ فعقودنا وحكم قاضينا وقوانين ديننا تكفينا في تصحيحها. منطوق القرآ بأن شهادة العدلين هي المعتبرة والكتابة والعقود أضعف من العدلين للاحتما في الخط بالتمثيل. وأيضا، أكثر أصحاب الأملاك سافروا وأخذوا عقوده معهم وأيضا كم من دار تلف عقدها والشرع المحمدي يحكم بأنها له بسبب اليد وعدم المعارض مع امتداد الانتفاع بها. وأيضا كم من دار مكتوبة عـ جد عال وتنوسي فيها اسم الوسائط، إذ ليس لنا سجل يجمع من ولد ومـ مات فالشرع يكفيه الشهرة مع عدم المعارض.

فتوهم أهل بلادنا أنكم تريدون الحكم بالشرع الفرنسوي في أمر عقودنا وهو تلفيق من شرعين فلا يجوز.

فنطلب رفع هاته الفتنة حتى لا يتلف الناس أملاكهم بالبخس في البيع وان لزم ولابد فليكن بحكم شرعنا المشترط احترامه. ثم أن لمن أغراكم بهذا الأمر إن صح، أغراض آخرى نتيقنها و لم يسمح الوقت بذكرها.

واما ما لا يحصى من الجزئيات الشنيعة فكثيرة؛ مثل اخراج الناس من سكناهم بدون مهلة وبمهلة يوم وليلة وثلاثة أيام سواء كان ملكا لهم أو بكراء قبل تمام مدته ليسكنها فلان وإلافلان. ومثل هذا ما وقع في ثالث عيدنا في 13 من محرم. أن نبهوا على عدة ديار من أوقاف مكة والمدينة أن يفرغوها ويعطوها للدلال لزيادة الكراء فأمتنع من فيها وقالو نحن أكتريناها من الوكيل الذي نصبتموه على الكراء وهو مذكور بدفتره، والعام القابل بذمتنا؛ لأن العادة انهم في رجب قبل رأس العام بستة أشهر إما يأمروهم بالخروج أو يجددوا لهم كراء سنة، فيلتمسون ما بين ستة أشهر دارا أخرى. وإلا في مدة ثمانية أو عشرة أيام كيف يجدون دارا يرحلون أليها والشرع لا يخرجهم جزما. فلم يقيلوا لهم عذرا وأخرجوهم.

ومثله أن اليهود يتجاسرون على المسلمين وبالخصوص على البدويين الذين يأتون من البراري، و لم نرمن عساكر الفرنسيوين مثل ذلك التجاسر، مع ما ترتب من الغيرة حيث أن اليهود لم يحفر لهم قبر و لم يهدم له ملك ولم تؤخذ لهم شنوغة (البيعة) بل شنو غائهم اليوم أزيد من جوامعنا الباقية بأيدينا والشنوغات وان كانت داخلة في الشروط إلا أنها ضمنا ومساجدنا صارحة، وأمثال هذا مما يغير القلوب ويسيء الظنون بالدولة الفرنسية كثيرا جدا.

فهذه بعض شكاوي ومطالب. والمشتكي اليه هو مالك الملوك سبحانه وتعالى ثم من بعده حضرة راي (الملك) فرانسة ثم حضرة ديوان حقوق البشر، ثم حضرة الوزير. ونحن ممن يأتي البيوت من أبوابها،، حيث

أن حضرتكم مقدم على نظام بلادنا ونعلم يقينا انه لم يبلغ جنابكم ما حل بنا أو بلغكم ملفوقا في وجوه لا أصل لها.

فأرجو جنابكم أن لا تجيبني بمثل ما أجبتم به سيد ابراهيم بن مصطفى باشا حيث قلت له: «أمشي الى الجزائر وانا أسأل عما قلت فان كان صحيحا ترفع الظلم» لأنني لا ينفعني أن تسأل الظالم عن ظلمه ولا ارتضي جوابه. وإن كان مرادكم سؤال القاضي والمفتي، فأعلم أن كلوزال كان نفي المفتي شيخ الاسلام بسبب تحريرات له اليه في أشياء يقول انها مخالفة للشروط فلكونه يقول الشروط نفاه؛ وأدعي عليه مالا أصل له وحبسه كما نفي برمون القاضي بدون حق؛ فلم تبق جرأة للعلماء أن يقولوا ما يغير خواطر عمالكم، وماهم إلا الحكم بين المتخاصمين.

وأيضا علمائنا يفنون شبابهم في تعلم العلم في الجوامع لا اختلاط لهم مع الناس، ولا علم لهم بالقوانين السياسية وتدبير الملك ومعاملة السلاطين فان قالوا أو سكتوا عن خوف نفي أو حبس، فلا تعمل عليه.

فالآن إمّا أن تعتمد كلامنا، ونحن جماعة من أعيان أهل الجزائر ونتقوى بما يذكره الفرنسيون الذين كانوا في الجزائر والفوا وتكلموا وما زالوا يتكلمون، واما أن تعين كوميسيون ترسله الى الجزائر ممن لا رغبة له في أخذ أموال الناس وتمنعه محبة الدولة الفرنسوية عن ارتضاء الظلم ونسبته اليها ويشمئز عما فعلته السفهاء فترى صحة ذلك.

ومطلوبنا الشرع والحق وأنت أولى من عمل به. ثم نعتقد الأدب والمروة في خطابكم مهما أمكنت فان تعديت الطور عن مرارة الظلم فاعذرني وسامحني.

وكتبه حمدان بن المرحوم عثمانخوجة في 15 حرم 1245[1] ووقعه ابراهيم بن مصطفى باشا.

---

(1) 3 جوان 1833.

5!

الضميمة الثانية

مذكرة كتبها السياسي المفكر حمدان بن خوجة و سلمها للجنة الإفريقية التي قدمت من باريس للتحقيق و تقص الحقائق من الشكاوى الكثيرة التي بعثها أعيان سكان الجزائر،من جراء القتل الشنيع و الظلم و التعسف الذي تعرض له الأهالي بدون استثناء أو تمييز.حررها حمدان خوجة في أواخر سنة 1833.[2]

---

[2] نقلا عن كتاب جمال قنان نصوص سياسية جزائرية في القرن 19(1830-1914) ص ص60-63.

13 ـ مذكرة سلمها سيدي حمدان بن عثمان خوجة الى اللجنة الأفريقية (أواخر سنة 1833)[1]

ان لجنة التحقيق الخاصة بالجزائر قد أخذت معها مذكرة خالية من جميع التحيزات وأعلنت عن استعدادها لجمع كل الوثائق الضرورية التي تمكنها عن إبداء حكم صائب في مستوى الأمة الفرنسية؛ مطابق لضميرها وفي حدود مبادىء الشرف والعدالة وان السبيل الوحيد لأداء مهمتها بأمانة هو أن تضع مبادىء حقيقية ومتداولة تؤدي الى معرفة الأحداث المجهولة واستخلاص النتائج وفقا لما يتطلبه المنطق.

وهكذا إذن، فانها لا تستطيع الحصول على الأصول التي تستقي منها معلوماتها إلا في الأماكن الموجودة تحت سلطاتها والتي يمكن أن تزورها وتفحصها بحيث يمكن لها أن تنقل الخبر تماما كما ينقله شاهد العيان، أو الرجوع الى تقارير وفية فيما يتعلق بالبدو والقبائل التي يصعب الاتصال بها نظرا لبعدها عن السيطرة الفرنسية وللوضع العدائي الذي ما زال مستمرا في أوساط هؤلاء السكان منذ ثلاث سنوات ونصف. فهولاء البدو والقبائل أنفسهم هم القاعدة الأساسية لكل ثروة في الايالة الجزائرية، وعليهم يتوقف السلم والهدوء في هذا البلد...

(1) المصدر: أنظر النص الفرنسي للمذكرة في G. yver. «Si Hamdan Ben Athman Khodja» in Revue africaine. 1913 p. 122 et suivantes

وقد اعتمدنا الترجمة التي وضعها د. ع. الزبيري في: مذكرات أحمد باي حمدان خوجة وبوضربة الجزائر 1973. ففي هذه المذكرة الثانية حاول حمدان خوجة ــ عندما تبين له ان اللجنة سوف تبنى، بعد عودتها من الجزائر، موقفا، يوصي الحكومة بعدم التخل عن الجزائر والاحتفاظ بها ــ التصدي للمصادر التي استقت منها اللجنة معلوماتها التي اعتمدت عليها لاستخلاص النتائج التي توصلت اليها، بكون هذه المصادر ليست متجردة من جهة وبأنها لا تعكس الواقع من جهة أخرى.

ان الفرنسيين لم يقوموا أبدا بما يصد هؤلاء الأهالي عن أفكارهم الغالطة والتعصبية، بل على العكس، إنهم لم يتركوا شيئا لابقائهم في جهلهم.

واني لن أذكر هنا تلك الأحداث الغير المشرفة ولكي يتحقق المرء من صدق كلامي ما عليه إلا أن يرجع كتاب السيد بشون(1)، خاصة ما أورده حول قضية العوفية حيث ان الجيش الفرنسي لم يحاش حتى النساء والشيوخ والأطفال. ولقد حدث أكثر من مرة أن ذبح الرضع على صدور أمهاتهم، وأحرقت المساكن وسلبت المواشي، وامتلأت أسواقنا بالأمتعة المنهوبة. ولقد شوهدت في هذه الأسواق، أساور ما تزال على أزندتها الدامية، وقرط مخضبة بدماء الأذن التي انتزعت منها، ومن سوء الحظ أن هذه الأعمال اللاانسانية كانت تتجدد في كل مرة يلتقي فيها الجيش الفرنسي بالبدو و (باستثناء عنابة) ويقال أيضا أن بعض النساء تم بيعهن كما تباع الحيوانات.

ان طرق العنف هذه لا تؤدي سوى الى شل أفكار هؤلاء الأهالي ودفعهم الى الحرب وجعلهم يتشبثون بآرائهم التعصبية. ولقد صار من المتداول بينهم ان الفرنسيين ليس لهم هدف غير ابادة العرب وتجريدهم من أملاكهم الأرثية...

ولكي يرجع هذا الشعب الى الصواب ينبغي أن تغير استعداداته فتمحي من ذهنه تلك الأفكار السوداء التي كونها عن الطبع الفرنسي والتي لم يكن يعرفها من قبل وهي اليوم من سوء الحظ تزداد نقشا في أعماق قلوب الأهالي، ونجد أن هذا النفور يتزايد للأسباب رئيسية أربعة هي:

---

(1) كان مديرا للادارة المدنية في بداية عهد الاحتلال حتى عام 1832 وألف كتابا قيما حول وضع الجزائر في هذه الفترة تحت عنوان:

«ALGER, Son état présent et son avenir» Paris, 1833.

1 ـــ الشعور بالاستعباد من طرف أمة أجنبية استعملت لذلك القوة والتحايل.

2 ـــ اختلاف الديانة لأن سكان الايالة يتصورون أن الفرنسيين لا يحاربونهم الا بدافع التعصب الديني وهي فكرة تولد لديهم أعمال العنف التي يقومون بها ضد المساجين مخترقين بذلك قوانين الحرب التي تحمي الأسرى مهما كانت الأمة التي ينتمون اليها.

3 ـــ خشية المآل الى الفاقة نتيجة اغتصاب أملاكهم.

4 ـــ وأخيرا، الأحداث التي وقعت في مدن مختلفة والتي أمرت السلطات الفرنسية بدخولها.

كل هذه الأسباب ساهمت في اقناعهم أكثر فأكثر بأن الفرنسيين لا يتصرفون الا بدافع الانتقام والحقد الديني.

ولكي نبرهن أيضا، على أن البدو والقبائل هم القاعدة المؤسسة لثروات هذه الايالة. ينبغي التذكير بأن الجزائر قبل الغزو، كانت معروفة لدى الجميع بأنها مخزن أوروبا، وان أصل هذه الحرب البغيضة يرجع الى تزويد فرنسا بالحبوب. أما الان فعلى العكس ان العيش في الجزائر لا يقل غلاء عما هو في فرنسا والسبب في ذلك أن وسائل الاتصال بسكان الداخل مقطوعة... ان هذا الشعب لا يمكن ان تكون له فكرة طيبة عن الفرنسيين عندما يرى ان وجودهم أشعل حربا مؤذية أكثر منها نافعة وان فلاحته قد أهملت تقريبا وتجارته مع الشعوب الأخرى قد انقطعت وان راحته قد تشوشت. ان ثلاث سنوات ونصف من الاحتلال قد جعلت السكان مصبرين بما يعملون. واغتاظ السكان لهذه الأهانة الى درجة انهم صاروا ينفون كل شعور بالقرابة في أفراد أسرهم الذين يزودون الجيش الفرنسي بالليمون ولا يهمهم في ذلك الحجة التي قد يتذرعون بها.

أما انا فلو انصت الى نداء ضميري، فانني لا أرى تدابير تخدم مصلحة فرنسا غير تلك التي يكون الهدف منها، اما مطاردة هؤلاء السكان الى الصحاري حتى يبقى الميدان خاليا، وذلك إذا كانت هذه التدابير تتماشى مع حقوق الانسان ومع المبادىء التحررية التي تختص بها الأمة الفرنسية، واما انتخاب أمير محمدي، معروف وقادر تأتمنه فرنسا على مصير هذا الشعب فيحكمه وفقا للمبادىء التحررية التي تتلائم مع قوانين واخلاق هذا الشعب، وفي هذه الحالة فان فرنسا تبرم معه اتفاقا يضمن مصالح الفرنسيين في إفريقيا.

وفي نظري فان تبني هذه التدابير الأخيرة فقط، هو الذي يجعلنا نأمل أن يستتب الأمن الذي لم تحصل فرنسا بدونه على الفوائد التي يمكن أن تقدمها لها الايالة كما ذكرت ذلك بعبارات أخرى في نهاية الجزء الأول من من مؤلفي حول مدينة الجزائر.

وإذا لم يوافق على هذه التدابير، فأنني لا أرى امكانية لمعالجة الوضع الراهن لأننا لسنا في قرن الفروسية والتعصب الديني، بل إننا من حسن الحظ، في قرن التنوير والحضارة والعدالة. ولذلك أقول بدون تحفظ ان فرنسا ستحقق بواسطة هذه التدابير الأخيرة الاحتلال الصحيح لافريقيا لأن أحسن الاحتلالات هو احتلال قلوب البشر وهو لا يمكن الحصول عليه إلا باللطف والعدالة لا باستعمال العنف وقوة السلاح...

الضميمة الثالثة

رسالة أرسلها أحد الضباط الفرنسيين من تلمسان عام 1851 الى الجنرال بيليسيي،يخبره بأن هناك معلومات مدونة من قبل الإسبان يعود تاريخها الى عام 1772،عن وجود كنز مخبأ في قصر المشور منذ العهد الزياني تتضمن قناطير من الذهب و الفضة على هيئة نقود و جواهر و أحجار كريمة...

A son Excellence le Général Pélissier,

Duc de Malakoff.

Votre Excellence,

Dans le courant de l'année 1851, nous eûmes connaissance de la copie d'un manuscrit, en langue Espagnole, portant la date du 31 décembre 1772, et vraisemblablement rédigé par un officier général Espagnol de l'arme du Génie, en tournée d'inspection dans le 1er [illegible] du Méchouar. Prise sur la pièce originale, conservée aux archives du Ministère de la Guerre à Madrid, cette copie relatant en grande partie les événements survenus dans la place forte d'Oran, nous fut transmise en 1850, par un officier faisant partie de l'Ambassade française, à MM. C–raigne, capitaine d'État-major, aide-de-camp de M. le général Pélissier, et L[illegible] de [illegible], en vue d'éventuelles fouilles et récupération d'un trésor enfoui, d'après le manuscrit, dans les diverses niches et [illegible] de certains souterrains de la citadelle du Méchouar et estimé à quelques deux cents cinquante quintaux d'or et d'argent en pièces de monnaie et bijoux ainsi que plusieurs coffrets de pierreries précieuses.

Adressé au quartier-général de la redoute militaire du Méchouar, à Tlemcen le Dix-huit Septembre en l'An 1850.

الضميمة الرابعة

ام أعيان مدينة قسنطينة و أرباب الأسر و الفقهاء و الأساتذة و العلماء و رؤساء سكان البادية و أعيانهم بارسال عريضة الى البرلمان الانجليزي،يخبرونه،بالجرائم التي يرتكبها الجيش الفرنسي في حق الشعب الجزائري و يطلبون من حكومته أن تتدخل ،لمنع الجرائم ضد الإنسانية المرتكبة،و السهر على حقوق الإنسان و مصلحة الإنسانية و تدعيم الرابطة الأخوية بين البشر في شهر شعبان 249 الموافق لشهر ديسمبر 1833.[3]

[3] نقلا عن كتاب جمال قنان نصوص سياسية جزائرية في القرن 19(1830-1914) ص ص77-80.

18 ـ عريضة أعيان بايلك قسنطينة الى البرلمان الانجليزي[1]

الحمد لله:

ان الواضعين أسمائهم، أسفل هذه الرسالة هم من أعيان من قسنطينة وأرباب الأسر الكبيرة والفقهاء والأساتذة والعلماء ورؤساء سكان البادية وأعيانهم، وكل من له نصيب من المسؤولية وأفراد الشعب يقولون لكم بالاجماع بأنهم أخطروا بكون البرلمان البريطاني من مهامه السهر على احترام حقوق الانسان ومصلحة الانسانية وتدعيم الرابطة الأخوية بين البشر.

ولهذا السبب، فاننا سنروي لأعضاء البرلمان البريطاني ما حدث لنا ونحن نقول لهم بكوننا نعلم أن بلادكم قد أرسلت مبلغ مائة مليون دورو إسباني[2] إلى الهند من أجل تحرير العبيد بها احتراما وخدمة لحقوق الانسان وانا ندعو لكم بالنجاح ونعلمكم بأنه من المفروض ان أية سلطة يجب أن لا يكون هدفها هو إراقة الدماء، فالوجب يحتم عليكم، قبل كل شيء، ان تبادروا بالدفاع عن هؤلاء الناس قبل الاهتمام بتحرير العبيد.

اننا نعلم برلمانكم الموقر، بكون الفرنسيين لم يدخلوا مدينة الجزائر إلا بعد أن وقعوا على معاهدة تتضمن بنودا محددة، ولقد قام قنصلكم بالوساطة في هذا الشأن لكن الفرنسيين لم يحترموا هاته المعاهدة في جميع

(1) المصدر: A.Temimi «Le Beylik de Constantine et Ahmed Bey 1830-1837» 227-230

(2) قيمة دورو الاسباني في هذه الفترة خمس فرنكات.

بنودها، بل على العكس فقد كان مسلكهم مناقض لمبادئها، بنفيهم لأشخاص من أهل البلاد بدون سبب وفصلهم للزوج عن زوجته وأبنائه واستيلائهم على أملاكهم. لقد عمدوا الى تبديل الدين والاستيلاء على أملاك الحبس، التي أوقفها المسلمون على الفقراء. ثم وضعوا أيديهم على المساجد واتخذوا من بعضها مساكن والبعض الآخر أجروها للتجار. كما قاموا بهدم المنازل على غير وجه حق وقتلوا أناسا بدون سبب معقول وسجنوا آخرين كما قام الفرنسيون بانتهاك حرمة المقابر وأفقروا كل سكان مدينة الجزائر. اما بالنسبة للريفيين المقيمين في ضواحيها فقد أوقعوا فيهم مذبحة[1] بالرغم من كونهم كانوا في حالة سلم مع الفرنسيين لقد قتلوا بناتهم ونسائهم بدون رحمة ولا شفقة فهذا عمل شنيع لم يسبق أن سجل تاريخ الطغاة نظيرا له.

كما استولى الفرنسيون كذلك، عن طريق الخيانة والغدر على قصبة عنابة واستقروا بها وكأنهم ملوك. أما بالنسبة لنا فنحن نريد أن نوضح بكوننا خاضعين لسلطة السلطان العثماني وبأننا لن نخضع أبدا للذي حاربنا وغدر بنا. فهو عدو ماكر امتدت سوء نيته نحونا حتى الى أمواتنا. لقد بدل ديننا وافتك مساجدنا واستولى على صدقات فقرائنا. اننا لن نثق أبدا في عهوده ولن نستطيع العيش معه في سلام والتعاقد معه مطلقا. اننا نرفض حتى رؤيته. فالواجب يحتم علينا محاربته الى آخر رجل منا فلن يقع أي شيء بيننا غير العداوة وما ينجم عنها، فلا راحة لنا مادام هناك جار غادر فحالتنا تشبه حالة ذلك الذي أدخل ثعبانا في بطنه فهو لن يشعر أبدا لا بالراحة ولا بالأمان.

اننا خاضعون لسلطة سيدنا الحاج أحمد باشا وكنا بفضل سياسته سنكون في سلام لولا تدخل هذا الجار الغادر.

---

(1) إشارة الى عملية الابادة التي دبرها روفيقو ضد قبيلة العوفية المستقرة عند ضفاف وادي الحراش.

أما بالنسبة للأخواننا في الجزء الغربي من البلاد فهم بدون قائد فالقوي منهم يأكل الضعيف والطرق غير مأمونة وحالتهم مضطربة والفتنة عامة، وسلطة حكومة الجزائر لا تصل اليها ولم نرد ان نترك رئيسنا يسيرهم ويهتم بهم، مخافة ان يستغل الفرنسيون الموجودين في عنابة ذلك، ويقومون بمهاجمتنا خاصة وانهم لم ينفكوا عن مهاجمة سكان الشرق.

اننا ندرك ان العدو سيقوم باحتلال بجاية، ذلك أن هدفه هو القضاء على الحكم الاسلامي وإراقة الدّماء وتبديل الدين والانتقام من الأحياء ومن الأموات أيضا. وبالمقابل فاننا نعرف جيدا إخلاص ونية الانجليز الذين يعلنون صداقتهم لكل من يريدها فهم يحترمون المعاهدات وينفذونها كما يحترمون قوانين المجتمع وحقوق الانسانية هذه الاعتبارات هي التي دفعتنا الى أن نرفع اليكم شكوانا لأجل ان تخلصونا من هذا الغدر وتطردون الفرنسيين من عندنا لأنه ليس لديهم أي حق في أرضنا التي كل شبر منها هو موروث منذ الآف السنين اننا أحرار فكيف يسمحون لأنفسهم بان يبيعونا لحاكم تونس فهل يملكون شيئا ليستطيعوا بيعه[1].

وحسب ديننا فإننا نعطي العشر لأميرنا ولماذا باعنا الفرنسيون بعشر أضعاف هذا العشر إذن؟! وإذا كانت هذه الأرض خصبة حتى يدّعون بكونها أغنى من الهند، إذا كانت كذلك فهي لكم، حتى ولو تنبت ذهبا، وسيكون الله معنا.

ماذا تعني هذه التطلعات إذن نحو بلادنا، إذا كانوا يزعمون بكونهم جاءوا لغرض تحديثه وإقامة العدل والقضاء على الهمجية فيه؟ واننا نرد على ذلك، ونحن على يقين بأن الهمجية والظلم الذي يقترفونه أشد قسوة وشناعة

---

(1) إشارة الى الاتفاق الذي وقعه كلوزيل مع باي تونس حول مقاطعتي قسنطينة ووهران.

من كل المظالم والهمجية التي عرفت حتى الآن فليس هناك مثال للجور يمكن مقارنته بالطغيان الفرنسي، فهو يتجاوز خيال كل الطغاة منذ أن خلق آدم الى يومنا هذا.

وعلى الرغم من أن الفرنسيين لهم ملك مثل الملوك الآخرين، وبأن موقفه مغاير لموقفهم، ومع ذلك فإننا مضطرون الى أن نرفع شكوانا اليكم لنرجو منكم العمل من أجل وقف إسالة الدماء والانهيار، في بلادنا. اننا نترجى مساعدتكم والى الله المشتكي لقد أوكل الله اليكم مهمة المحافظة على النظام وارشاد الانسان واننا نطلب منكم العمل ما ترونه مناسبا.

فالتسمحوا لنا، فالتقاليد العربية مغايرة لتقاليدكم ونحن لا نعرف العادات المتبعة في تقديم الشكاوي واننا نرجوا من الله ومنكم وضع حد لآ لامنا وهو ما جعلنا لا نفكر إلا خيرا بالنسبة للجنس الانجليزي.

حرّر في شهر شعبان 1249(1)

(1) ديسمبر 1833.

الضميمة الخامسة

بعث أحمد باي رسالة الى الصدر الأعظم في 20 ربيع الأول 1251 يخبره بما حل بالوطن الجزائري من المحن و تراكم الأهوال،و اشتعال نار الفتنة بين القبائل،عند دخول العدو الفرنسي،الى دار الاسلام في الجزائر،فتشتت حال المسلمين و هربوا بدينهم،لا يدرون أين يذهبون.

و قد استطاع أحمد باي بأن يخمد نار الفتنة،و تجلت الرعية لطاعة السلطان العثماني،و تظل عينه يقظة في وجه الكفار يتصدى لهم خدمة للخلافة العثمانية(4)

حرر في 17 جويلية 1835

(5) نقلا عن كتاب جمال قنان نصوص سياسية جزائرية في القرن 19(1830-1914) ص ص81-82.

19 ـ رسالة الحاج أحمد باي إلى الصدر الأعظم(1)

20 ربيع الأول 1251

سعادة أبدية وعناية ربانية وكرامة صمدانية وعافية سر مدية وخيرات وافية ونعم شاملة متوالية نخص بها حضرة الوزير الأعظم الأرفع الصدر الهمام الأنفع صاحب المكان الأكمل الأسمى والجناب الأمنع الأحمى ابقاه الله سعيدا زمانه رفيعا شأنه واضحا في المكرمات برهانه أما بعد اهداء تحيات لايقة تامات وتسليمات مباركات شاملات ودعوات ناجحات صالحات لمقامكم المحوط بالعناية المويد بالرعاية فانه تقرر في تشريف علمكم ما قد حل بساحة قطرنا من المحن وتراكم الأهوال واشتعال نار الفتنة عند دخول الفرنسيس للجزاير دار الاسلام وتشتت حال المسلمين وهربوا بدينهم لا يدرون اين يذهبون وصاروا في حيرة وشدة لكون متولى أمرهم اخطأ في تدبيره ولم يعلم أحدا من عماله وجنوده واشترط على العدو نجاة نفسه وأهله وماله وترك المسلمين في حيرة عظيمة فكبسهم العدو على غرة إذ لم يكن لهم استعداد ولا عدة فاستولى عليهم الأعراب واستحلوا منهم ما دون أنفسهم وكنا ممن حضر وقت جباية المال بغير عدة قوية من الرجال فقمنا باعانة الله وجمعنا شتاتهم وحارينا عدوهم وما سلكنا بهم الطريق الا بعد شدايد وأهوال حتى بلغوا محل الأمن من البلاد وقهرنا أهل الشر والفساد وبذلنا في سبيل الله

(1) المصدر: عن مجلة التاريخ (الجزائر) عدد 4 أفريل 1977، ص ص 49 — 50.

وطاعتكم أنفسنا ومالنا المخلف عن اسلافنا وكسرنا شوكة أهل الفتن الموقدين نارها الخايضين تيارها وجلبنا الرعية بالبذل الكثير والرفق والاحسان واسقطنا عنهم جميع المظالم السالفة والبدع الشاقة الباطلة واكتفينا منهم بالقانون الشرعي فطابت نفوسهم وقرت عيونهم وسكن روعهم فنبهناهم لملازمة السمع والطاعة للدولة العلية الموية الخاقانية ثم أمرناهم بالاستعداد والوقوف في حراسة الوطن والحذر من مكر أهل الكفر وما زلنا على تلك الحال باذلين النفس والمال إذ الدخل الشرعي أقل من خرج ما يلزم صرفه في الجيوش والجند الكثير الوافر إذ نحن واقفون به بعون الله وعزه ونصره في عين الكافر منقادين لطاعة الدولة الخاقانية وخدمة المملكة العثمانية نأمر بها البوادي وأهل الحاضر معلنين بذكر إسمه الشريف في الخطب والدعاء الصالح على المنابر مستيقضين لأحوال الرعية والحكم بينهم بالسوية وتسديد شأن أهل الملة الاسلامية والوقوف عند حدود الشريعة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية غير أننا في ضيق وهم وكرب وغم من تعذر الطرقات البرية والمسالك البحرية التي حالت بيننا وبين التوصل والوصول بأخبارنا وانما أعرض حالنا الى الحضرة السعيدة ولو كان بيدنا أقرب المراسي الينا مثل عنابة لكان حبلنا متصلا بمقامكم وودنا متأكد عندكم وخدمتنا مستحسنة بين يديكم ونحن الآن لا يتهيأ لنا إرسال مكتوب الا بالحيلة والتلطف والوسيلة فأنظروا أعزكم الله في شأن من هو عاكف على الطاعة ملازم للخدمة فان الأمور مرجعها اليكم وشرح حالنا لا يخفى عليكم والسلام ختام.

حرر عن إذن العبد الفقير لربه سبحانه
الحاج أحمد باي وفقه الله
في 20 ربيع الأول سنة (1251) (16 جويلية 1835)

الضميمة السادسة

بعث الأعيان و القضاة و المفتين و العلماء و الفقهاءو الولاة و شيخ البلد و مشايخ الرعية و خواص المفريقين و عامتهم و غيرهم من أعيان بايلك قسنطينة برسالة يطلبون فيها من السلطان منحهم لقب الباشا للحاج أحمد باي،في 21 ربيع الاول 1251 الموافق ل 17 جويلية 1835 منعا للمغامرين الذين يطالبون بهذا البيلك،و سد الطريق أمامهم، و للحفاظ على هذه المنطقة و البلد كله و كافة أهله، و هؤلاء جميعا يتبركون بتقبيل العتبة العلية،و يدعون بأصول بقائها و تخليد ملكها تحت رعايتكم في ظل الإسلام و في داره.[6]

[6] نقلا عن كتاب جمال قنان نصوص سياسية جزائرية في القرن 19(1830-1914) ص ص83-86.

20 ـ رسالة أعيان قسنطينة الى السلطان العثماني يطلبون منح لقب الباشا للحاج أحمد باي[1] في 21 ربيع الأول 1251

حمدا لمن منّ على الأنام بجلائل النعم وفواضل الاكرام الذي رفع منار ملة الاسلام وأيد قوام الدين تأييدا مؤبدا دون انفصام وصلاة وسلاما تامين أكملين على نبينا محمد عين اليقين الذي قام به أود الدين وتم به إرسال المرسلين وعلى آله الطاهرين وصحابته الأكرمين مبتهلين بصادق النية وصافي الطوية لمن له الملك والملكوت والسنا والعز والجبروت فاتح أبواب الفرج منجي جموع المسلمين من البؤس والحرج بالادعية الصالحة الناطق بها كل عضو وجارحه لمستحقها بشمول النفع العام المألوف ودفع المضار والخطب المخوف ملك ملوك الزمان وأمير العصر والأوان ملجأ ذي الأراب وملاذ المستغيث بلا أرتياب ظل الله في أرضه وخليفته على خلقه ملك البرين وخاقان البحرين مولانا السلطان بن السلطان السلطان الغازي محمود خان لا زال مؤيدا عظيم الشان منصورا عزيز الجناب يعزه وجلاله أي القرآن أما بعد حمدا لله تعلى على كل حال وسؤاله تدارك الألطاف الخفية في ساير الأحوال ومناوله بره وجوده واحسانه في الآن والمئال فان المقام العلي والجناب الأعظم السنى لا يعزب عنه ما كان دهر الجزاير من استيلاء طوايف الكفار بقضاء وقدر الواحد العزيز القهار يفعل ما يشا لا يسئل عما يفعل ولقد تشوشت لذلك الخواطر وبلغت

---

(1) المصدر: عن مجلة التاريخ (الجزائر) عدد 4 أفريل 1977، ص،ص 55—٥٧

٤

القلوب الحناجر ووقع التشتيت والاهمال وساءت الاخلاق والأحوال وتتابعت الخطوب وتباعد الحبيب عن المحبوب وتفاقم البؤس واشمازت النفوس وكان نهض لاثبات جمع المفترق ورم المتثلم من العمالة القسنطينية أمنها الله تعلى سليل الولاية الشرقية عبدكم الحاج أحمد باي بن المرحوم برحمة الله تعلى أحمد باي نهوض جد واجتهاد وسلك في سعيه مسالك السداد فجمع المفترض وأطعم الجايع وأجار المستجير وأغاث المستغيث وكسى العريان ولم يتخلله تفريط ولا اهمال في هذا الشيء واستمر حاله الى أن أبلغ كلا مأمنه كل ذلك بالسياسة والتفكير وحسن التلطف والتدبير ولما عاينا ما تيسر له من صميم العزيمة وتمام الحزم وثبات الجاش والتوفيق وما انفقه في المصالح العامة من خالص مـالـه الذي ورثه من أسلافه على التحقيق من غير منفعة عايدة عليه ولا استفادة قبالة ذلك حصلت لديه وظهر لنا من مهابته وانقياد رعيته وسعيه في تأمين الطرف وسياسة بايعناه على السمع والطاعة دفعا لمكافرة البرابر وتفاولا بتوليته على الجزاير حتى يقضي الله أمرا كان مفعولا ملتمسين من مقام مولانا أمير المؤمنين ملاذ العباد في أعلاء اعلام الدين راجين من شيمه الحسنة واخلاقه الكريمة المستحسنة ولبه السديد وتدبيره الصّايب الرشيد تنجيز ما اقترحناه وإقباله علينا من الباب الذي طرقناه ويولي علينا عبده الحاج أحمد بن المرحوم أحمد باي فاز في توليته مع جلالة همة الدولة السنية انجح وأحمد ثم يلتف مقامه الأسعد الى ما عليه الحال من ضيق الأسباب وقلة المنال إذ الحاج أحمد يتعذر عليه يسير الأسباب وتمتنع لديه المطالب والأراب لأنه ليس له مرسى يرتفق بها ويتوسع من جهتها وأقرب المراسي اليه بونة فالمرغوب من جنابكم العلي تحصيلها له بانظاركم السعيدة فانه يتعذر عليه جل مهماته من أجل ذلك إذ هذا المكتوب لا يتمكن من ابلاغه الى حضرتكم السنية الا باستعمال الحيلة في المدة الطويلة ولو كانت المرسى كانت أموره منبرمه من قبلكم قبل هذا ونؤمل من المقام العالي ان يعتمد اجتماع كلمتنا فانه حجة في بابه ويد الله مع الجماعة ونحن أعـزك الله ملازمـون على الدعـا بـدوام دولتكـم مجدون

في استعمال طاعتكم لا زلت لما تصدع صابرا ولأعدائك قاهرا وللمسلمين محزا ناصرا في مقام أسعد وعيش أرغد حرر ما ذكر عن أعيان العمالة القسنطينية وهم القضاة والمفتيان والعلماء والفقهاء والولاة وشيخ البلد ومشايخ الرعية وخواص المفريقين وعامتهم منهم العلامة الا حسب الأنسب أبو عبد الله الشيخ محمد الفقون والعلامة الاعدل أبو الوفا الشيخ مصطفى القاضي الحنفي بن الشيخ عبد الرحمن والعلامة الحجة أبو العباس الشيخ أحمد قاضي المالكية ابن الشيخ سعيد والعالم الأجل الشيخ مصطفى المفتي الحنفي والفقيه الخطيب أبو راشد الشيخ عمار مفتي مالكي والعلامة الأمثل أبو عبد الله الشيخ محمد العربي ناظر أوقاف المساجد وأمناء الحرف وهم عمار بن القشي والحاج صالح بن سي ثابت ومحمد بن فازع والعربي بن بلقاسم بن الحاج العربي وعلي بن ثابت وحسين بن شراد ومصطفى بن علي وحسين وجعفر وعمار الشريف والصالح ومحمد بن العابد وعبد الرحيم ومحمد ابن زهد وعبد الرحمن والحاج حافظ وعبد الواحد وأحمد بن صالح وعبد الكريم ومولود وسليمان ومصطفى بن خاشع ومحمد بن حاجي وعبد القادر النساخ ومصطفى بن موسى واسماعيل وعبد الحفيظ والحاج سليمان وأبو عبد الله المحتسب وعوام أهل البلاد وكبراء الوطن الشيخ بوعزيز والشيخ بضياف والقائد محمد ابن العربي والشيخ القريشي والشيخ المكي والشيخ أحمد بن الحاج والشيخ عبد الله بن بوعزيز والشيخ بن الحاج والشيخ الرزقي بن منصور والشيخ أحمد ابن الزبن والشيخ محمد بن عبد الله والشيخ أحمد بن محمد والشيخ عبد السلام والشيخ الحفصي والشيخ أحمد بن محمود والشيخ المسعود بن المبارك والشيخ علي بن سليمان والشيخ محمد الشريف والشيخ ناصر والشيخ علي بن العجاني والشيخ سهل بن سحنون والشيخ محمد بن المسعود والشيخ بورنان والشيخ أحمد بوعكاز والشيخ عاشور سعيد بن نصر والشيخ أحمد بن الحاج والشيخ عبد الله بن شعبان محمد بن مراد والشيخ الأخضر بن مراد والشيخ الطيب بن بوزيان والشيخ بو عبدالله بن منصر والشيخ رجب بن بوزيد والشيخ رشيد

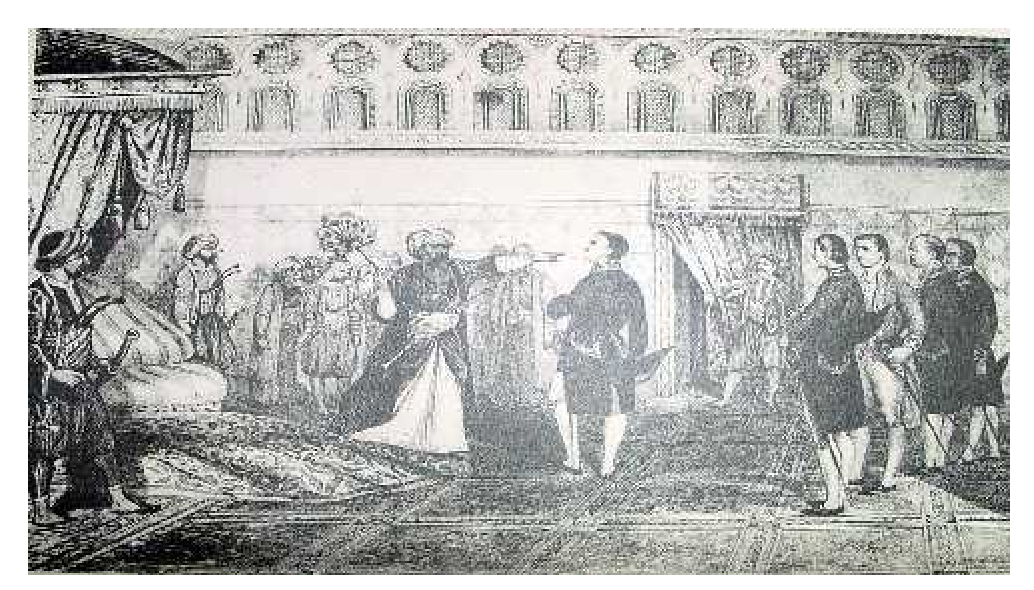
الشيخ الصادق والشيخ سالم والقائد مختار والشيخ علي بن أحمد والشيخ محمد ابن البعلي والشيخ سلامة والشيخ بركات وكافة أهل الوطن وهؤلاء كلهم يتبركون بتقبيل العتبة العلية متبركين بها وانهم يدعون بأصول بقائها وتخليد ملكها ينهون اليها تسليمات طيبات مباركاتي.

في 21 أشرف الربيعين سنة 1251
(17 جويلية 1835)

الصور و الخرائط[1]

(1) نشكر السيدة مديرة المتحف الوطني سيرتا و أعوانها لمساعدتنا بالصور و الخرائط التي تدعم الموضوع و توضحه

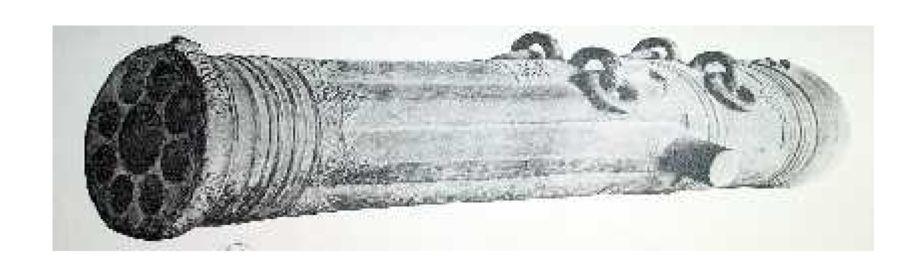
انظر Expédition et résistance du constantine musée nationale cirta



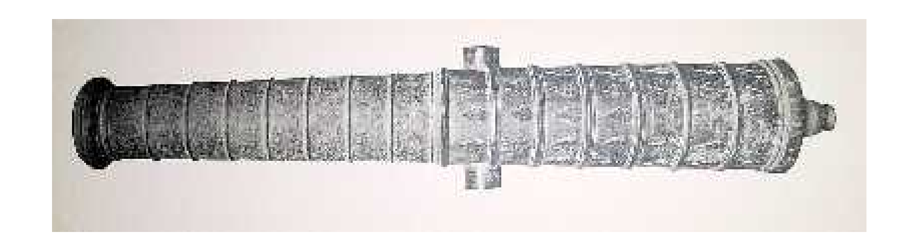
حادثة المروحة في قصر الداي حسين



سيدي فرج عام 1830 حيث نزلت قوات العدوان

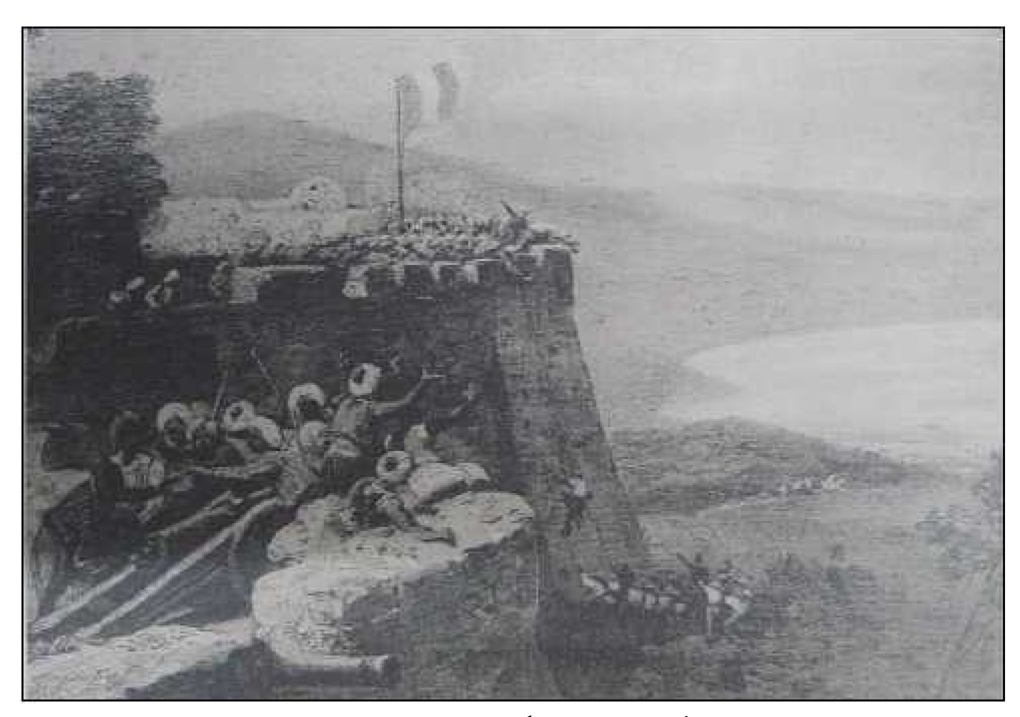


مدفعية جزائرية بها عدة منافذ و منقوش بنقوش عربية إسلامية من مادة البرونز





مدفعية جزائرية بها نقوش عربية



معارك بين قوات أحمد باي و سكان عنابة ضد جيش الاحتلال



قوات أحمد باي تترصد لجيش العدو القادم نحو قسنطينة بين 16 و 20 نوفمبر 1836



جسر باب القنطرة المنفذ الشرقي الوحيد للمدينة لوحة 1824 Paule vaucher

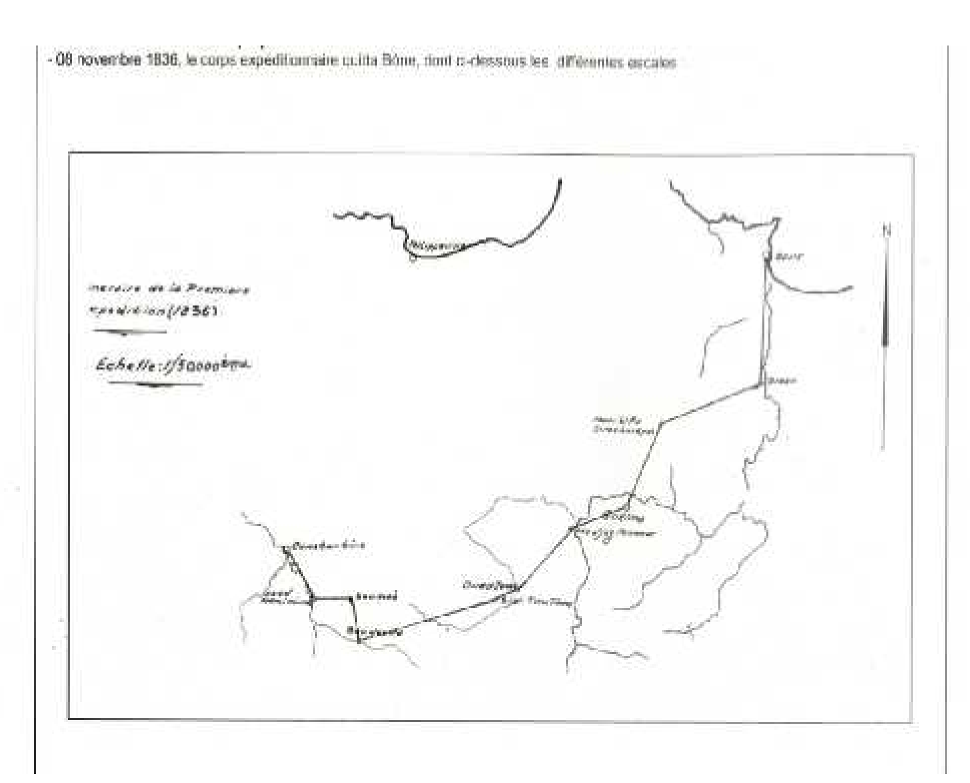


مجسم لمدينة قسنطينة قبل سنة 1830

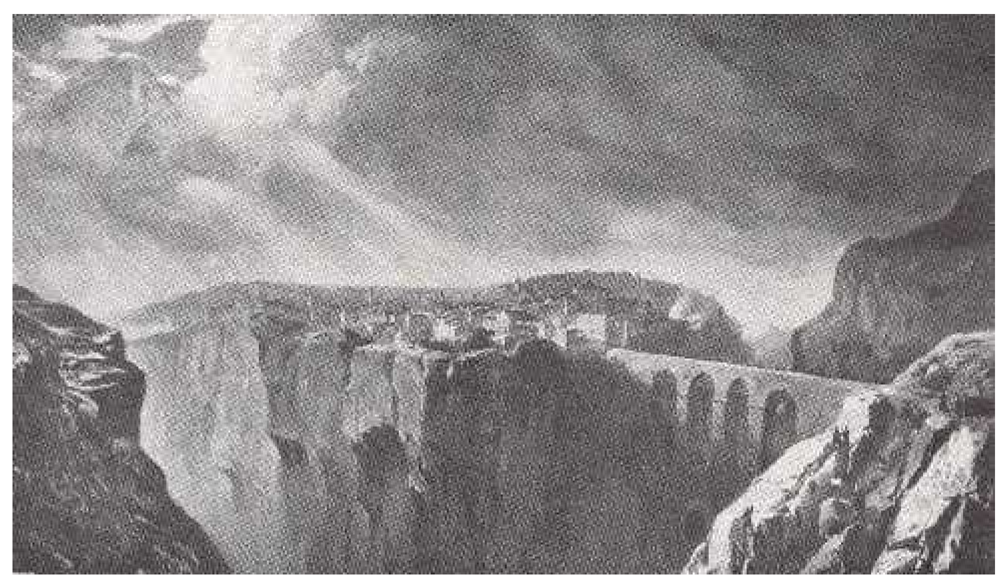


منظر عام لمدينة قسنطينة قبل الاحتلال

هجوم العدو على المدينة يوم 6 أكتوبر 1837



طريق سير جيش العدو من عنابة نحو مدينة قسنطينة يوم 8 نوفمبر 1836



الجهة الشرقية لمدينة قسنطينة القنطرة و بابها

الهجوم على قسنطينة عن طريق باب القنطرة يومي 23و24 نوفمبر 1836



معارك بين فرسان أحمد باي و قوات العدو خارج أسوار المدينة



الحاج احمد باي حكم ما بين(1826–1837) قسنطينة

عاش ما بين (1787–1850)

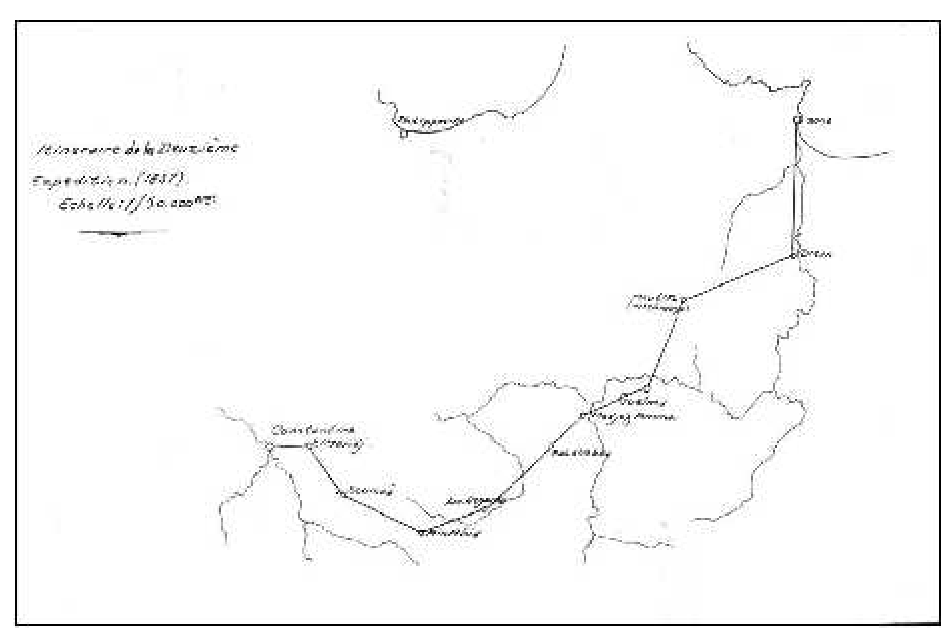


علي ابن عيسى قائد المقاومة في

باش حامبا لأحمد باي(1863–1837)



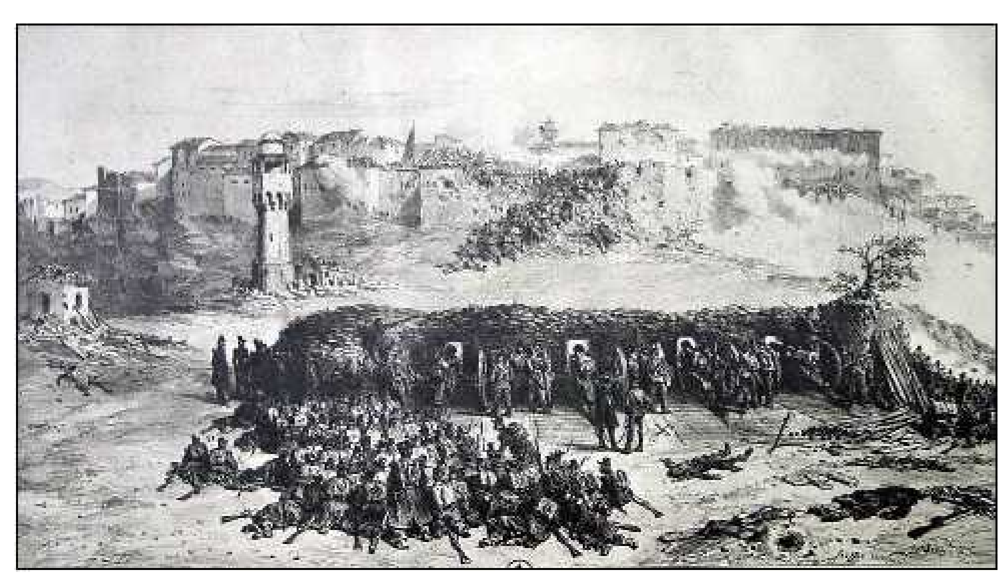
يوسف المملوك اليهودي،من أصول ايطالية المنظم للجيش الفرنسي كان ضابطا في الجيش العثماني التونسي و المعروف بالجنرال يوسف،جاء به الجنرال كلوزيل لينصبه بايا على قسنطينة في الحملة الاولى 1836



الطريق الذي سلكه جيش العدو من عنابة نحو قسنطينة في الحملة الثانية 1837



لوحة تمثل لحظة مقتل القائد العام دي مريمون بقذيفة مدفع على البومباجي يوم 12

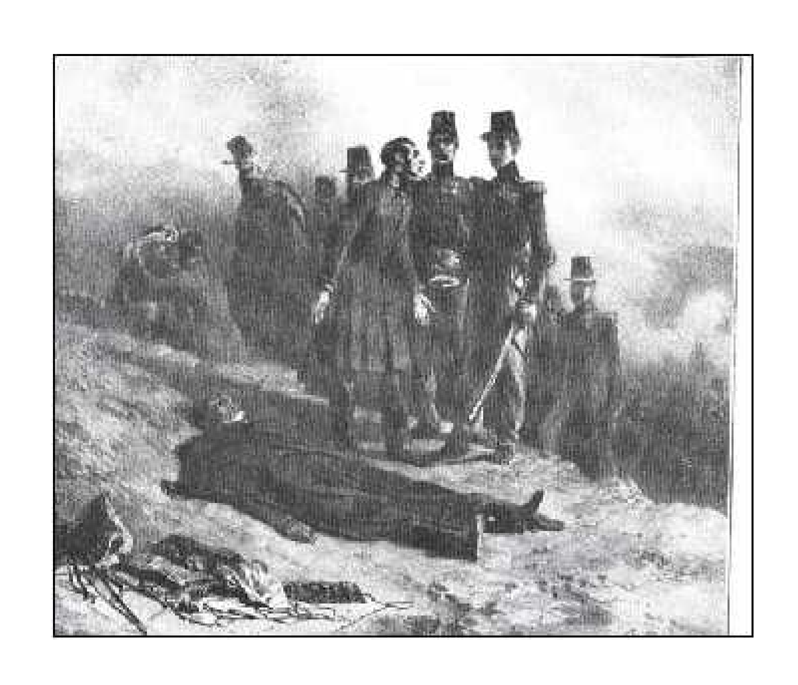


أكتوبر 1837

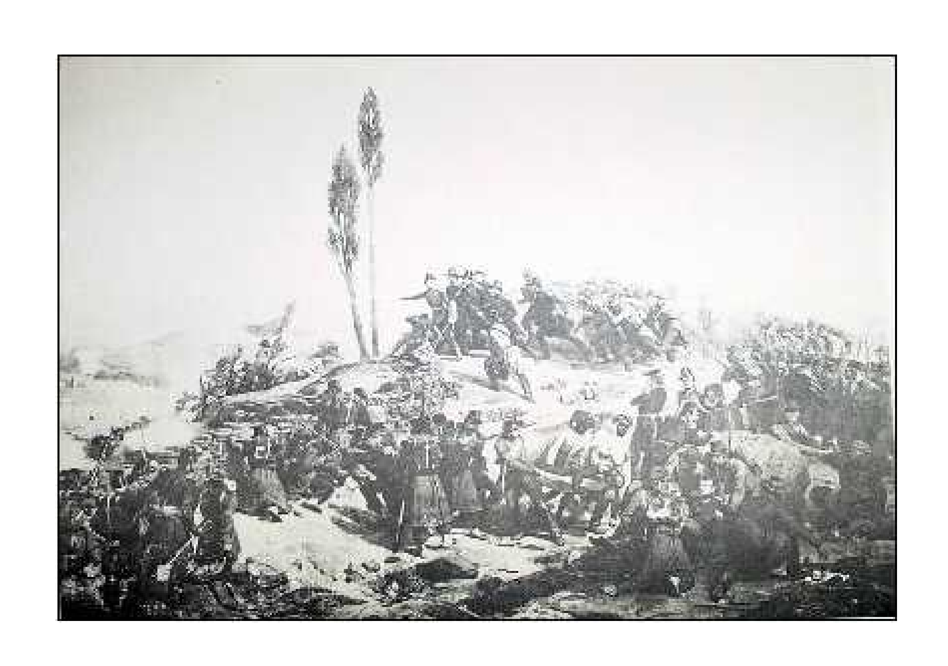
تسلل العدو يوم 13 أكتوبر 1837 الى المدينة عبر الشرخ الذي أحدثوه في السور

بعد سقوط المدينة في يد العدو اندفع السكان رجالا و نساءا و أطفالا نحو منحدرات القصبة و الطابية فارين،مستعملين الحبال و غيرها،فوقع الكثير منهم في الجرف و في خوانق وادي الرمال و لاسيما منهم النساء و الأطفال،فمات الكثير منهم





مقتل القائد العام لجيش العدو الجنرال دي مريمرن بقذيفة مدفعية أصابت جسده في كدية سيدي عاتي يوم 12 اكتوبر 1837





احتلال العدو لكدية عاتي و تنصيب بطارياته فيها لضرب المدينة

معارك ضارية أمام الباب بين المقاومين القسنطينيين و جيش العدو،دخلوها بتواطئ من بعض السكان



معركة الشوارع